بحر أزرق.. قمر أبيض

حسن البحَّار

الكتاب: بحر أزرق .. قمر أبيض
المؤلف: حسن البحار

رقم الإيداع: ٢٠٢٣ / ١٣٧٤٢
الترقيم الدولي: 978-977-493-842-9
الطبعة: الرابعة / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

بحر أزرق.. قمر أبيض

رواية رحلات

حسن البحَّار

ريتـا

في تلك الحقبة من حياتي وقبل أن يحدث أيُّ شيء ما كنت لأعرف معنى الإحساس بالوقت ولا التوحّد في البُعد.

بالكاد أغفو مع وسادة أيّامي أستيقظ كسولاً ناعس العينين على شبّاكي تتزاحم ألوان الصباح.

يسرقني الوقت وأسرقه، لا تسكنني الرهبة عند الرغبة الجامحة في الحاجة إلى القفز راكبًا عقلي.

أتأبط خطواتي، أمشي وسط الأمنيات أتخيّل العالم معبدًا تتسامى فيه الأرواح إلى ملكوت السماء على مضمار محفوف بالمخاطر البقاء فيه للأقوى، لا أستوعب أهمية من حولي.

تلاعبني أنامل القدر كما تلاعب الريح العاصفة أوراق الشجر.

قلبي المضطرب في خفقانه يخلو إلى نفسه منزويًا عند الجهة اليسرى، بينه وبين العزلة ألفة؛ غايته العيش بسلام لا أكثر.

حتى تلك الليلة وكأنها من عالم آخر تحوي نجومًا أكثر مما نتخيل، وَقَعَ من بريق توهّجها في صدري أمل يتجدد باستمرار، سمح لنفسي القفر الانسياق عاطفيًا عبر خيوط دَسّتْ في داخلي المعجزات.

لا أحد يعرف كيف؟

بقدر ما شطرتني تلك الخيوط إلى نصفين -نصف تملكته الآهات، ونصف تؤجِّله الأقدار لوقت لا أعرف أوانه؟ - إلّا أنها حَوّلَت مجرى الانتماء في الانتساب إلى ذهني نحو الأفضل عبر جُروفٍ ومنحدرات كانت تُحدِث مزيجًا من الرهبة والتحدي في عقلي الذي لم تكن له القدرة على نسيان ضياء (رستوريتا) تلك المخلوقة التي تحلو لها نبرة صوتي ضاحكة وأنا أصيح به مرارًا تكرارًا عن قصد أختصرهُ (ريتا).

لن أنسى ريتا أبدًا.

امرأة من طرازٍ آخرَ أكثر مما أتصوّر، لطيفة خالصة اللطف تتوغل في القلب على مهل تَملكهُ، لا أشبع من النظر إليها، ولا التمعن في تموّجات سمار قوامها المنتصب في ثوبها الأبيض الذي يوحي بتفسيرات عديدة حين تنشغل في زحمة الأيّام، متحررة الوجود، تتحرك بوقار مزدان، سيدة أعمال في النهار، أُمٌ حنون في المساء، وفي هدأة الليل أنثى أكثر من رائعة، لكن الأيّام الجميلة لا تتدفق مثلما يتدفق الضياء، فما كان بمقدوري أن أفعل إلّا ما أفعله الآن؟

يبدو من المناسب عند هذا الحد أن أذكر كيف تعرَّفتُ على ريتا؟ وأين؟

قبل كلّ شيء كنت أحمقَ في نظر بعضهم، منشغلاً في بحثي عن الهدوء.

لا أخفي شعوري بالحياة، نقطة ضعفي العفوية أومئ للناس بوديّة مفرطة، أتجنّب الوقوع في المهالك، أغوص في عالمي الخاص متسائلاً عن معنى الحواس وما تبعثه للروح من ملذات كانت بعيدة عن واقعي حتى في أحلامي القليلة.

ما كان بوسعي أن أدرك أنني قد أفسدت علاقاتي بمن حولي وانتهيت وحيدًا؛ ذلك لأن عفويتي كانت تفسّر تصرفًا ساخرًا، حتى جاء اليوم الذي أشعلَ في نفسي شرارة التميّز عن غيري عندما جمعتني الصدفة و(ريتا) الراكضة قرب حدائق الخرافة مثل مصباح منير لمحتها هناك.

أنثى بريئة مراهقة متوهّجة بشكلّ مثير من بين جَمعٍ غفيرٍ من الرجال والنساء والشباب والشابات الذين شَكلّوا موجًا هائلاً يتلاطم مندفعًا نحو شيء يُريدونه أو لا شيء.

على الأقل هذا ما كنت أتخيّلهُ وأنا أُغمض عينيَّ وأفتحهما خلف (أنطونيو) الذي كان يَطوف بي على ظهر دراجته النارية شوارع مدينة دوماي مسرعًا إلى كازينو يُسمّيها أهلها «يونغ تو»، تلك التي وصفها لي بقوله تشبه بركة ورد غارقة في عتمة المساء، ذات مصابيح متناسقة الألوان، تسرق الأبصار، تكنس الآهات، يقصدها البحّارة من كلّ مكان للاستمتاع.

في أول خطوة تجاوزت فيها مستطيل الباب، لمحتها بابتسامتها الواسعة الحلوة تحدِّق بي بتمعُّنٍ وثبات عجيبين، سمّرتني عيناها المتألقتان بمكاني، أصغي وكأن ثمَّة همسًا يُحلّق فوق رأسي: «هلمّ، تعال..، سنبتهج معا!».

لكن هذا من بنات الخيال؛ لأنّ الطائر الذي ظهر من بين عتمة الأشجار، صدح بصوته الرنان بغتةً ثمَّ ابتعد.

كانت (ريتا) في بادئ الأمر تقف جانبًا تنظر إليَّ باهتمام وثبات مثل مخلوقة في حضرة رسام على وجهها القمحي ابتسامة قبول عريضة.

تخطّيتُ عتبة الباب..

بعد خطوات قصيرة وقفت، رأيت المكان يعجّ بالزبائن المتمتعين بمنظر الأشجار، يتحوجون داخل أضواء المصابيح الزاهية في جوٍّ يمتدُّ بوداعة إلى أحضان الهدوء المعتدل.

ما زلتُ في مكاني واقفًا، أتلفّتُ ولا أعرف أين مضى حتى اختفى (أنطونيو)، رفعتُ نظري صوب (ريتا) المخلوقة التي ما أن رأتني حتى تحرّكتْ يدها تلوّح لي بتحية لا تختلف حرارتها عن حرارة ضحكاتها المدوّية.

كنتُ أهتزّ من الداخل أمام عينيها المتألقتين، يحرّكني لهاثُ السؤال: «ما سرّ هذا الترحاب؟».

بعد كثير من التردّد في الردّ، نافضة شعرها إلى الخلف، كشفتْ لي عن وجهها الذي يضفي عليه بعض من المطر الذي توقف قبل دقائق لمعانًا.

تقدّمتْ نحوي باسمة تتموج بقوامها الرشيق تحمل معها عبارات التحية، أول ما فعلتْ، ارتمتْ في أحضاني تعانقني عناقًا حارًّا، تقفُ على أطراف أصابع قدميها، تشدّ بذراعيها

العاريتين كتفي، تضع وجهها مقابلة وجهي ضاحكة كأنها فراشة في لفظ أنفاسها تغني، جسدها الطريّ الذي يلتصق بجلدي يدخلني في جوٍّ أهتزُّ منه طربًا، يثير في نفسي هوس الرغبة في الحبِّ الراكض خلف لهاث الفؤاد في سؤال آخر: «ما سرُّ هذا؟!».

استولى الطموح والطمع على عقلي إلى حدٍّ أعددتُ لها سكنًا في القلب. انتهيت أشمّ بصمت عطرها المثير.

كنت أعزف؟

أصلّي؟

أتمتم في دنيا لم أنعمْ بها طوال حياتي مثل ما أنا فيه الآن، لكن يا للأسف الاستعباد في الطموح والطمع لا يمكن أنْ يستمرّا أبدًا؟

أنا...

ما أنا إلّا سربٌ من الأمنيات تحطّ على الأرض لا تطير، سرمديّ الإخفاق في عالم المعجزات...

عدنا إلى أنفسنا لحظات، أنظر عينيها بذهول أحمق، أتأمّلها في عجب سؤال: «أهذا العناق المثير لي وحدي؟ أمْ لكلّ وافد جديد؟».

تسامى الوقت في الزوال، الجواب بات عصيًّا، تمنيتُ لو بدّلتُ قلبي بآخر، رنّتْ لي ضحكاتها المدوّية، توقف لها الزمن وحركات السحاب، فاضتْ من حولها ألفةٌ تخلِّف

وراءها رغبةً، عزوتها يومذاك أنها لي لا لسواي، أكّدتْ ذلك خدود شفتيها المخطوطات بالروج الأحمر الخفيف، رفعتْ رأسها تنفض عن شَعْرها الملتصق على وجهها إلى الوراء، وهي تعزف بفمها اللقاء، قالت:

- تعال معي.

- !.....

صبوتُ على كبتِ الكلام، ها هي تتألّق أمامي بضحكاتها تضع يدها على يدي، تجرّني خلفها على مهل، بغضون لحظات كنا نجلس خلف طاولة واحدة في زاوية هادئة، نتحاور بحديث خفيض عن مرحلة من أهمّ مراحل حياتي؟

أيّ سرور يمرّ ولا يترك أثرًا في عالم طفولتي الوحشي؟

كلّ ركن من أركان الكازينو كان يرخي المسامع يشكو للآخر شكوى الهمس صياح: «الحب رقيق.. لكنّه شجاع».

في فضاء الحلم ضعت!

كنت أصغي ولا أصغي.

الجوّ يشعل الرغبات حتى يسكبها في آهٍ أثقلتها قطراتٌ من الندى، طائشة ترتمي حالمة، راغبة في الالتصاق فوق رؤوس الحشائش التي مالت معنا أينما كنا نميل؛ تهتز، تثير باهتزازها أريج القداح الذي حملته الريح صوب أنفي، في غروري سكرتُ، أتهجّى شفاهًا همستْ فوق رأسي: «إنها مميزة، ومنها ستبني على نفسك الأساس».

كانت لها طريقة خاصة في الاستمتاع بأجواء الإثارة المتناوبة من شعاع مصابيح توقد بين مسافات أجسادنا لذة اللمس.

لا أبالغ لو قلت، يمكن أن تعدّ (ريتا) من أجمل نساء العالم فقط في ابتسامتها كانت تثير فضاء الأحلام، مشيتها مثل عطر وموسيقى تروح وتجيء كلّما احتاجت إليها إحدى عاملاتها، كانت تملك المكان! ربما عليّ القول، لم أُفاجأ كثيرًا عندما قالتْ بطريقتها الخاصة متسائلة:

- أنت عربي؟

- نعم

ثمَّ زدتُ مرتبكًا أتمنى بقاءها:

- إنما تعرفين ذلك من (أنطونيو).

ضحكتْ حتى بان بياض أسنانها، قالتْ: ...

نعم، أجل، كلّها عندي سواء، المهم قالتْ بلكنتها الآسيوية ومضتْ تتمايل بقوامها الرشيق إلى إحدى عاملاتها التي كانت تومئ لها بورقة حساب زبائن خرجوا للتوّ.

لم تغب (ريتا) عن نظري، فرضت نفسها بقوة الابتهاج على اهتمامي، رشيقة القوام بشكلّ لذيذ، تلبس حذاءً أحمرَ بكعبٍ عالٍ و(بنطالاً) من الجينزِ أزرق يشدُّ على قميصها الأبيض المطرز بالخيط الذهبي اللماع من الوسط، تضع وردة بيضاء في شعرها الأسود الناعم السارح على الأكتاف،

ثمْرة ناضجة مكتملة النموّ، شهية.

كلّ شيء فيها متناسق ورشيق.

لا أعرف ماذا فعلت في جسمي لحظة عودتها بقامتها الممشوقة تقف أمامي، على وجهها القمحي إشراقة شمس، لن يعرفها مطلقًا الكسلُ الوسنان، تحمل بكلّتا يديها شرابي المفضل -النبيذ الأحمر فيه الثلج يَعُوم-ضاحكة تقول بلكنةٍ فيها رنةُ جمال:

- تفضل.

أربكني لحن صوتها العذب، متحاملاً على نفسي وثبتُ من مكاني وتناولت من يديها الشراب، ثمَّ رجعتُ إلى جلستي ببطء شديد أردّد مندهشًا:

- كيف عرفتِ ما أريده؟!

مالتْ برأسها إلى كتفها وقالت والابتسامة على وجهها:

- من (أنطونيو) طبعًا.

رفعتُ رأسي مصوّبًا نظري إليه، رأيته بشوشًا يعانق امرأة تبدو أكبر منه يحاول تقبيلها يائسًا، تجمع بينهما على ما يبدو عاطفة حبٍّ قوية؛ لأنّهما كانا يبتسمان لبعض خلال حديثهما الخفيض، فيما كانت عيناهما تعكسان الودِّ الواضح تجاههما.

لا بدّ أنّ ريتا هي الأخرى قد لاحظتْ ذلك، سمعتها تسألني بغتة:

- هل تعرفها؟

- لا.

رمقتني بنظرة شَكّ وقالتْ:

- كيف لا، وهو صديقك؟!

تأكدتُ من تعابير وجهها الذي توقف عن الابتسامة إنها جادة في سؤالها، أجبت:

- تعرفتُ عليه قبل ساعة أو أكثر، ولا أعرف تلك التي معه.

- أين؟

كانت تنظر لي بتفحّص وكأنها تعتذر عن طرحها هذا السؤال عندما قلت:

- هناك...

لا أعرف سبب تفكيري المفاجئ بطريقة التأثير فيها، حتى أتمكّن من إبقائها معي أطول وقت ممكن حاولتُ عن قصد الإطالة في الحديث معها، حين قلت بطريقة مفصلة كيف وقع الخيار عليه من بين جمع غفير من سواق الدراجات النارية الذين كانوا يصطفون على الرصيف بانتظام ينتظرون أرزاقهم قرب بوابة الميناء.

لمحتهُ هناك فاستأجرته...

على الفور انطلق بي..

يطوف شوارع (دوماي) وأنا خلفه، اسأله عن الأماكن

الجميلة، وهو يردّ ذكر (يونغ يو) بطريقة مشوقة قال عنها:

«كازينو تبعث الراحة والاستمتاع طوال الليل ينشدها البحارة بلا انقطاع».

أغراني الوصف في التخيّل الذي أنساني بدني المثقل بالهموم من الفراق في الإبحار المتكرر، مدفوعًا بالأمل:

«لعلِّي أجد فيه ما قاله صحيحًا». طلبت منه المكان.

بدا لها هذا الجواب مقنعًا من عودة الابتسامة الحلوة على محيّاها الذي كان يلمع وسط العتمة كلمعان عينيها الآسرتين حين قالت والحنان يرقق نبرتها:

- أنت طيّب.

اهتزّ السرور في قلبي عندما قرصتْ خدي بخفة ومضتْ تتموج بقوامها الرشيق إلى غايتها، لمحتها تقترب من (أنطونيو)، وقفت عنده تتحدث معه، يبدو حديثًا خاصّا؟

هذا ما أوعزت لي نفسي من طريقة همسها في أذنه.

ولأكثر من ربع ساعة مضت كانت تهمس وهو يصغي، تحرك الفضول الذي أتى مع شيء من الريبة والشك في سؤال كان محيرًا لي جوابه: «ما قالته عني؟ ما كان ردّه؟».

لذتُ بالصمت.

لم أنبس ببنت شفة؛ لأنّ كلّ ما يمكن أن يحدث لي بالتأكيد هو أمر جيد، وهذا يدفعني إلى الصمت الفعّال شأنه شأن من

يعطي طابعًا من العواطف العاتية للروح. نتيجة المقارنات التي دخلت مخيّلتي من زمن كنت فيه لا طاقة لي في التوفيق وإحكام الربط بين الأجزاء التي كانت غير منتظمة في التأليف القاذفة بي على هيئة خواطر مستقلة كنت أتصنع الصبر، لكنها تلمع في لوائح متوهّجة الصور، تهجم على عقلي في كلِّ ذكرى من ذكرياتي القديمة لمغامرات كنت أحسبها عاطفية مضطربة.

لم أك أدرك في بادئها ما أقدارها، كلّ ما حدث برخاوة مفرطة أسمّيه اليوم حماقة، لا أعرف معنى المغازلة والحبّ، كنت صبيًا في الحادية عشرة، منظرهُ متكسّر الملامح، خائفًا يلتصق الحائط يجاهد كي يحافظ على الثبات وسحب النّفس.

خفقات قلبي قوية ترتفع وتضرب أصداؤها أذنيَّ من ابنة جيران لعوب يدها كيد شيطان تندسّ تحت قميصي إلى ظهري، تضغط بالخرز حتّى كدتُ أركع أمامها، تلثمُ وجهي بشفاه أشمُّ فيها فسقًا وخوفًا، يلفهما صمت عميق، أريد منها الابتعاد، لكن صوتي أضعف من بدني الذي بدأ يرتجف.

حاولتُ الجلوس، لكن (لولو) -جارتي-أحاطت رقبتي بذراعيها ثم سحبتني إلى صدرها تضغط على مؤخرة عنقي بقوة تطالبني المزيد لاهثة: «آه، تعال».

تغير وضعي من سيّئ إلى أسوأ، ولا أعرف لحظتها ما حدث لي؟

رجفتْ أطرافي، سقطتُ أرضا؟

أتذكر تلك الصفعات على خدي، قوية مصحوبة ببعض رشقات ماء متلاحقة على وجهي.

عمتي تجاهد لإعادة وضعي إلى الاستقرار، اضطجعتُ على ظهري والألم ما زال في صدري يتزايد، استدرتُ على جنبي وبكيت.

سارعتْ عمتي إلى فتح أزرار قميصي، حاولتُ الصراخ ولكن غياب صوتي منعني.

بدا السقف وكأنه يتحرك، الأثاث تحوّلَ إلى طيور، فيما الغرفة أخذت تتمايل تضيق وتتسع تبتعد وتقترب حتى صار نظري معلقًا بوجه عمتي.

رأيت فَمَها يتسع، سمعتُ صراخًا يردد اسمي، حاولت الإجابة..

لم أقْدَر، وعندما وصل الصوت بِحِدّة عالية ومعه صفعة قوية على خدي شهقت وأول ما قلت:

- أرادت مني...

وضعتْ يدها على فمي تريد إسكاتي، تلعن وتسب (لولو) تلك التي هربتْ إلى بيتها ولم أرَ وجهها بعد هذه الحادثة إلّا بفترات متباعدة، تتجنب النظر إليَّ آنذاك وكأني أحد مخاوفها.

أبقتْ هذه الذكرى في نفسي شيئًا من النفور تجاه الفتيات

المبتذلات اللواتي لا جديد فيهن ولا طريف، حتى بزغ في عقلي فجر الحياة في مرحلة الرجولة الأولى، عند ذلك اليوم الذي كان فيه المطر والريح يعوّلان في الخارج، كنت مثل الباقين من عائلتي ألوذ بموقد النار؛ أريد الدفء مستمتعًا بحكايات أمي وهي توزع الكعك مع الشاي، لا يشغلني إلّا الاستمتاع، قالتْ وفي وجهها الباسم إشراقة صدق: «ابنة أُختي (هيلين) خطبت لابن أخي!».

خيّم الهمّ والكدر على قلبي، خابتْ آمالي بما كنت أتخيله حبًّا، لكن ما زالت في عمق أعماق القلب بقايا أمل.

نعم، اعتقدتُ ذلك وفي الحال وسط ذهول الجميع -إلاّ عمتي التي كانت تعرف ميول قلبي البكر إلى (هيلين) -خرجتُ من البيت مهرولاً إلى بيت خالتي.

دخلتهُ وأنا مبتلّ تتصبب ملابسي ماءً، أقف عند (هيلين) أتوسلها سماعي.

ولأنني أعرف كم هي متكبرة ومتجبرة ترى من نفسها نفرتيتي وأكثر، قلتُ هكذا بدون مقدمات ما كان يجول في صدري من حبٍّ عميق لها.

صاحتْ بوجهي مستنكرةً قولي غاضبة، تنعتني بالفاسد، ولا أملك أي صفة من صفات الرجولة، والحقيقة لا أحمل إلّا الحبّ وأريد الزواج.

لم تنتهِ إلى هذا الحد، ضربتني على صدري وابتعدت

مهرولة تستنجد بمن في البيت غاضبة مني تصيح بأبيها الغليظ وأخيها البدين، وما كان من الاثنين إلّا أن ينهالا عليَّ ضربًا.

لمدة طويلة لم يخلِّصني من هذه اللعنة التي كسرت شوكتي إلّا عمتي.

مرّتْ الأيّام كنت في أوقاتها استجمع قوتي من تشجيعها المتكرر لي، نسيتُ الماضي منتبهًا إلى دروسي، أحمل معي حرصًا على عدم تكرار الحبّ مرة أخرى.

قطَعتُ التفكير في العلاقات الغرامية كما كان أصحابي يُسمّونها علاقات عابرة وأخرى تنتهي بالرواج لزواج شرعي.

شعرتُ بالوحدة التي أتاحت لي فهم درس من دروس الحياة الكثيرة، رفضتُ الزواج من ابنة عمي، تحججت بالدراسة -الهندسة البحرية -التي اخترتها بإرادتي، واستلبتُ موافقة أهلي بعد يأسهم في تغيير قراري، إذ كان متاحًا لي بحكم درجاتي العالية أيُّ مجالٍ آخر أختاره.

لم يتغير الحال وأنا في الأكاديمية البحرية بل زاد الصقل لقلبي وبدني، إذ كان التدريب والتدريس شديدين جدًا، لا يتركان لي المجال في التفكير بشيء آخر.

تخرجتُ بدرجة عالية سمحت لي بالسفر على ظهر سفينة حمل كبيرة الحجم متينة الهيكل قبل دفعتي بسنة، كنتُ سعيدًا جدًا يدفعني وهج الشباب إلى الأحلام الجميلة، أردد

قولها جهرًا: «ها أنا».

ما زلت نقيَّ المشاعر صريحًا، صادقًا، كلّ ما في صدري أُلقيه بصدق إلى أناس أغلبهم يحبون التلاعب بالمشاعر، يستغلون الضعف، كاذبون...

هنا لا أعرف ما أقول؟

لقد تبين بعد أوَّل إبحار لي، إنها حياة مختلفة عن كلّ ما كنت أعرفه بين أهلي وأصحابي؛ إذ بدا لي فجأة شيء من الطيبة ونقاء المشاعر، ما زالا في هذا العالم، أملاً يحوم في الأجواء يحتويني بلطف، يدفعني إلى التقدم بجرأة أكثر، على الرغم من مظهري المتحفظ إلّا أنني أشعر بنوع من الارتياح يهزّ القلب هزًّا بدعابته المتكررة يملأ الروح رعدة وقشعريرة.

أتفحص (ريتا) منتشيًا بقوامها الرشيق، تتنقل في أجواء المكان مثل النسيم ترحب بخفة ورقي بالداخلين، تودع بابتساماتها الحلوة الخارجين.

يبدو (أنطونيو) كان صادقًا معي في وصفه للمكان، ربما بدا لي هذا المكان أكثر جمالاً من (ريتا) المخلوقة الرائعة التي تتحدث الإنجليزية بطريقة جميلة يضفي على جمالها الشهي سطوعًا وهي تشدد على مخارج حروف كلماتها التي كانت تتلفظ بها بلكنتها الأسيوية.

هكذا قررت أن تكون كازينو (يونغ تو) محطة راحتي الخاصة طوال بقائي في إندونيسيا.

رائحة الرغبة

في زحمة الأفكار عند قراري الذي اتخذته للتو كنتُ أتخيل القادم.

بقيتُ لوقت ليس بقصير في بحر من الأخيلة، ألمس الضوء أحتمل الجنون من الانتظار، أعوم بالصمت تارة، وأخرى أشق التفكير إلى السطح حيث لا أحد.

لوقت مضى ولا أعرف كم، كنت قد قررت مناداتها:

«ريتا».

وإذا بها تظهر من وراء ظهري، ضاحكة تلاعب بيدها شَعري تقول:

- أنتَ القبطان؟

قبل الإجابة. أفرغتُ في فمي ما تبقى من الشراب، ثمَّ ألقيتُ عليها نظرة...

تبادلنا الصمت...

احتويتها بكامل قامتها.

فما كان بمقدوري أن أحَوَّل عنها، فائقة الجمال، طفلة تائهة تتحرى جوابًا، عيناها تتسعان تسايران صمتي، تمنيتُ لو كذبت عليها وقلت: «نعم».

لكن سرعان ما قلتُ في نفسي أن هذه الأمنية تتعارض مع مبادئي -وأنا ما زلت مع نفسي -وإن لم أكن القبطان فأنا رقيب الماكينة التي تجعل من السفينة تسير ليكون القبطان قبطانًا حقيقيًا فوق البحار، أجبت مؤكدًا على مخارج حروفي:

- لا.

كأنها تعرف الجواب مسبقًا، جلست قبالتي، شبه سنبلة سألتني وابتسامة حنوٍّ تبدو من وجهها الواعد:

- ما عملك؟

- أصلّح المحركات.

في الحال سحبتْ يدي وأخذتْ تقلب فيها، وتنظر بتمعّن..

أخذتْ وقتها في الصمت، دقيقة، دقيقتين، ثمَّ رفعتْ رأسها تغمض عينًا وتفتح أخرى، قالت:

- تكذب؟

خرجتُ من فرض الإنصات وقلتُ بحدَّةٍ وحزم واضحين:

- أنا لا أكذب.

- كنتُ أمزح معك.

- لمَ تنعتيني بالكاذب؟

- عمّال الماكينات يتغلغل بين أظافرهم سواد الدهون، وأنت يداك نظيفتان!

عندها قلتُ بارتياح:

– أنا رقيب الماكينة.

ضغطتْ بيدها ذراعي وقالت وهي تعضُّ بشفتيها:

– واضح، واضح؛ يداك بقوة رجلَيّ حصان.

ثمَّ زادتْ:

– ما اسمك يا رقيب الماكينة؟

دفعتُ رأسي إلى الخلف أضحك.

لا أعرف كيف كانت تصنع الكلام برقة روح رقيقة، تطلق المزاح بخفة دم عجيبة، حتى أني أتذكر جيدًا قلت وكلامي يقطعه الضحك:

– س. ي، اسمي، سي.

خفضتْ من نظرات عينيها ولوت شفتيها، وعلى بغتة لمستْ شعري ومضتْ ضاحكة تردد:

– اسمٌ جميل.

كان شيء لا يدفع للراحة؟

ربما كانت تتوقع مني غير هذا الاسم؟

أو شَكّتْ في صدق ما قلتهُ؟

جلستُ في انتظار عودتها، بفارغ الصبر أرقب حركاتها، لم تكنْ تنظر إليَّ، فقط توزع الابتسامات على الزبائن وتدور حول الطاولات وتضحك لهم.

تصنعتُ الانزعاج وغيّرتُ وضعية جلوسي، أعطيتها ظهري عن قصد وصرت مقابلاً للأشجار.

كلّ شيء كان هادئًا إلّا بعض الجالسين ممّن كانوا قربي رفعوا رؤوسهم وتَطلّعُوا نحوي في شكّ. غير هذا لم يكن يسمع سوى الموسيقى وقهقهات من كِلا الجنسين.

عليَّ الاعتراف بأنني أفكر فيها، وعلى يقين تام سأبتهج بعودتها..

وأنا في دوامة التفكير بسرعة الوقت الخاطفة وإذا بها بخفة النسيم تلامسني بجلوسها اللذيذ قربي تلاصق عن قصد كتفها بكتفي تردِّد اسمي في نبرة رائعة تسألني عن سبب انزعاجي.

نظرتُ بحيرة ودهشة يلفهما العجب؟!

«كيف فهمت هذه المخلوقة العجيبة ما يعتمل في داخلي؟!».

فكرتُ وأخذتُ وقتي في التفكير...

انتهيتُ مثلما ينتهي المهموم بفرح يفاجئه، أبصرتُ ثغرها ينفرج عن ابتسامة، قالت:

- كم عمرك؟

- أربعة وعشرون.

- متزوج؟

- لا.

في عينيها المتسعتين ثبتتني، تمدّ بوجهها إلى وجهي حتى أنفها لامس أنفي همستْ:

- هل تعرّفتَ على فتاة؟

فكرتُ بالأمر مليًا بعدها قلت:

- نعم.

عدلتْ قامتها باهتزاز مباغت، انتصبت مثل الرمح، تضع باطن يدها على خصرها الذي كان يهتزّ هو الآخر على رنين صوتها:

- مَن؟

- أنتِ.

- أنا!!

- نعم أنتِ، وإلى الآن لا أعرف اسمك!

عاكستْ ذراعيها على صدرها ثمَّ قالت بثبات وحنوّ:

- وتريد معرفة اسمي؟

- نعم.

- اسمي (روستوريتا).

- ريتا.

قهقهتْ.. بعدها قالتْ:

- نغمة «ريتا» تخرج من فمك بجمال رهيب، لكني (روستوريتا) يا «سي».

لا أدري إلى أين مضى عقلي، إنها تحبني ولا يوجد هنا سواها، رائعة، فاتنة، لذيذة، شهية، أستاذة في الأناقة واللباقة...

ضربتُ الطاولة وصحتُ:

- «ريتا»، ريتا، اسمك من اليوم «ريتا».

أجابتْ وهي تشير بكلّتا يديها كقائد أوركسترا تريد مني الهدوء:

- حسنًا، حسنًا، فقط اهدأ، تريد هذا الاسم، إذن أنا «ريتا».

- وبعد.

- ماذا بعد؟!

عدتُ إلى الصياح كالأطفال ممازحًا:

- كلّ شيء، كلّ شيء.

- عمري ثلاثون عامًا، أرملة، مات زوجي بحادثة تسونامي، لي طفل واحد عمره بعد شهرين عشرة أعوام، بوذية، أعيش في بيتي مع أُمي، عملي هذا الذي تراه، شريكتي فيه زوجة (أنطونيو).

- ماذا؟!

– كما سمعت، ولهذا سألتك عنها عندما نظرتَ إليها قبل قليل.

– لا، كنت....

قاطعتْ كلامي بنبرة لها وقع جميل على نفسي، قالتْ:

– أنتَ إنسان يدخل القلب هكذا...

نشرتْ ذراعيها، واستدارت من أمامي راقصة على أطراف أصابع قدميها مثل راقصات الباليه تدور.. تدور، وتدور حتى وقفتْ، على شاكلّة غصن غَضّ انحنتْ إلى يديَّ برشاقة، قالتْ:

– كم ستبقى هنا؟

– لا أعرف بالضبط، لكن ليس أقل من ثلاثة أيّام؛ نفرغ حمولة سفينتنا الراسية في ميناء الحديد (فيري) بعدها نرحل.

– هل أعجبك المكان؟

– نعم.

– إذن ستعود إلينا؟

– طبعًا.

تمعّنتْ بمملكة عينيها المتألقتين.. ثمَّ تلفّتتْ، كأنها تريد البوح بسرٍّ تخاف سماعه أحد غيري، همستْ في أُذني:

– لا تتجول في الليل وحدك.

- ماذا؟!

- لا تدخل الأزقة الضيقة وحدك، لا تفارق (أنطونيو) في تجوالك أبدًا، كن معه دائمًا، هو يعرف كلّ صغيرة وكبيرة هنا في (دوماي).

ثمَّ انتصبت بقامتها ومضتْ، تعدل من شعرها...

لا أدري ما أنا فاعل؟

وما يمكنني فعله؟

بدا لي أن الأمر يستحق الاهتمام، استيقظتْ مشاعر الأنا في داخلي، فجأة شعرت بوجودي، لسبب لا أدريه استجبتُ لرغبتي في البقاء قدر المستطاع قربها..

لكن ما سرّ معاملتها الطيبة لي؟

النسيم بهدوئه اللذيذ يلامس الأجساد الهاجعة تحت الأضواء التي كانت تطلي الأشجار بلونها الذهبي، برز من هناك (أنطونيو) يحاول التثبت بمكانه مبتسمًا، مازال بجانب زوجته يحاول تقبيلها، انتفضتُ من مقعدي الوّح بيدي أطلب منه الاقتراب.

أشاح بوجهه الضاحك عن زوجته وتوجه نحوي، وحين وصل سألتهُ عن «ريتا»، ما كان منه إلّا الجواب الذي عمّق في نفسي ذلك الإحساس في الراحة بقوله: «امرأة لا تحب الاختلاط كثيرًا».

فرحتي بما سمعته للتو، دستْ شعور السعادة الذي فاض

في صدري حتى غمرني إلى حدّ العجز عن صياغة أجمل جملة فيها عبارة تقدير اقدّمها إليه؟

لكني قلت بفمٍ ملؤه حروف الامتنان: «شكرا».

لمحني بنظرة ودٍّ ومضى...

لا أعرف هل عليّ الدوران في حلقة خيال رسمتها في خَلدي حين فكّرت إنها لي؟

ها هي قد عادت، يا لها من عودة، خلال النسيم حمامة بيضاء في طريق الربيع باسمة، لقد شممتُ في جسدها اللدن رائحة رغبة، تتقدم الذرات المضيئة مثل الطيور البيضاء فوق القمم.

يا إلهي، يجب على البَحّار التسلح بالصبر، تحاملتُ على نفسي وسألتها:

- أهو أمر سيء لو طلبتُ منك مرافقتي غدًا؟

نظرتْ إليَّ بشكٍّ وقالتْ:

- أنتَ جاد؟

- بكلّ تأكيد.

- كلا، لا تفعل أرجوك.

- أ هو خطير إلى هذا الحدّ؟!

- أنتَ ثمل.

- لكنني لستُ ثملاً يا «ريتا».

بعد ثانية من الصمت قالتْ:

– لا، أنتَ صغير السن ولا أريد نسيان ذلك، ولا أحبُّ أن...

قلتُ معارضًا:

– تحسبينني لا أعرف.

على الفور أجابتْ بابتسامة صَفقَ لها قلبي:

– حسنًا لنفعل ذلك.

ثمَّ زادتْ ضاحكة وهي تعدل بيدها وردة شعرها:

– غدًا عند المغيب في منتجع (جي وان).

– لا أعتقد أعرف مكانه؟

– لا عليك، (أنطونيو) يَدُلّك.

كنت أشعر بنوع من السعادة التي لا أعرف كيف وَسِعها صدري؟

هي تنظر بخجل...

في ضياء هذا الليل نتقدم نحو الشجرة، نطلق الضحكات تارة نتنهد في أخرى، نسير على مهل يجلدنا ضيق الوقت، متشابكي الأيادي حتى الباب ودّع قلبي وجهها، أحفظ غيبًا احتمالي، مثل حكايتي أحملُ اشتعالي والصدى الطويل صمتي...

ضبطت تفكيري.. فشلت.

رميتُ رأسي بلونها القمحي وضبطت ما تبقى من جسدي وغادرتُ المكان.

دوماي

ركبتُ خلف (أنطونيو) على ظهر دراجته النارية، منطلقًا بي على طريق لا أعرف إلى أين ينتهي، سألته:

- إلى أين؟!

- إلى حيث اللذة.

صحتُ به رافضًا مقصده، وطلبت منه -بحزم واضح الشدّة- العودة إلى الميناء.

امتثل طائعًا أمري، لاذ بالصمت، مثل أرنب وديع رجع بي إلى شارع من الإسفلت طويل تحيطه أشجار غَنّاء من جهته اليمنى، وفي الأخرى محلات متخمة بالبضائع والألوان، بعضها أبوابها مفتوحة للزبائن، والأخرى مغلقة.

نسير محاولين بسرعتنا سبق المطر قبل هطوله، السماء تلبدت بالغيوم السوداء، ترعد وتبرق بصورة توحي بأنّ المطر الذي سينزل من السماء بغزارة.

توقفنا فجأة!

- لِمَ توقفت؟

- تعطلت الدراجة.

ترجلنا من على ظهرها بهمّة يشوبها القلق، تلفُّ وجهينا الدهشة، تحرك (أنطونيو) فاحصًا دراجته يحاول معرفة

العطل، أخرج عدته من تحت مقعدها المتحرك، منشغلاً في بحثه عن العطل.

بدأ المطر في النزول بنسب مختلفة، لم تمض دقائق حتى انهمر المطر بسرعة خاطفة يصحبه دوّي الرعد ووهج البرق، بغضون دقائق أصبح الوقوف وسط الشارع تحت المطر محطّ جنون.

انطلقتُ مهرولاً إلى الرصيف أمام أحد المحال المغلقة؛ احتميت تحت مظلته.

توقف (أنطونيو) من تلقاء نفسه إلى جانبي؛ يتودّد لي طالبًا مني لبس (قمصلته) الجلدية.

شكرته، منفِّذًا رجاءه.

كنت أنظر إلى عينيه اللتين كانتا لا تحولان عن وجهي، شعرت به يريد التحدث معي، فكرت في نفسي قد يكون عن (ريتا).

تعاملتُ معه بطريقة الاستدراج أدفعه للبوح بكلّ شيء، لكنه تكلّم عكس ما تخيّلته عندما قال بسعادة غامرة:

– دوماي بلدة عزيزة علينا، دافع عنها أجدادنا زمن الاحتلال بقوة رجل واحد، رغم اختلاف انتماءاتهم العرقية والوثنية تعاهدوا على العيش بسلام.

– كيف اتفق أجدادكم كرجلٍ واحدٍ أمام هذه التحديات من اختلاف انتماءاتهم مثل ما تقول؟

- انظر.

- إلى أين؟

- إلى هناك، عند تلك الجبال العالية بسفوحها الخضراء المزدحمة بالأشجار المختلفة المحملة بالثمار، نحن هكذا...

- كيف؟

- كلّ سكان دوماي يختلفون في الأطياف والديانات والقوميات، نتكون من مجموعات عرقية، ولغوية، ودينية مختلفة، تنتشر متفرقة عبر العديد من جزر البلاد.

«الجاوية» هي أكبر إثنية في البلاد وهي المهيمنة سياسيًا هنا، لكنهم اتفقوا على هوية البلاد المشتركة في شعار رفعته السلطات: «الوحدة في التنوع».

تعاهدوا على علامة هذا الشعار وهي زهرة الفل البيضاء.

إننا نقطن في المدينة منذ آلاف السنين، لفيف كبير منهم مسيح وهندوس وبوذية وأقلية كما تعرف منهم مسلمون، لنا نمطنا الخاص في التعايش.

يتنقل هذا النمط بطريقة سلسلة مسالمة من جيل إلى آخر، لا يوجد فرق بيننا، على الرغم من وجود شيء مشترك يتفق عليه السكان وهو العيش في مناطق منفصلة من البلدة، فالمسيحيّون مثلاً سكنوا التلال مجتمعين حول كنائسهم، والهندوس في الغابات مع ماشيتهم القريبة إلى معابدهم، والبوذية اتّخذت من الأرض المنبسطة ملاذًا لها

في العيش بزهد واضح عند دور عبادتهم.

أمّا المسلمون الذين سكنوا السفوح من أجل الزراعة وإنتاج المحاصيل بجدٍّ ونشاط، على الرغم من قلّة عددهم المعروف للجميع من تجمّعهم في المساجد عند أوقات صلواتهم الخمس، كانوا وما زالوا الطاقة المتجددة في الإنتاج لهذه البلاد.

أما أبناء السلطات فلم يرَوا في الشوارع مطلقًا، كثيرًا ما نسمع عن كرمهم وتواضعهم بين الناس الذين يتعاملون مع كلّ شريحة من شرائح شعبهم وكأنهم أهلٌ لهم، شهرتهم الواسعة وصِيتهم الرنّان حافظتا على ثروتهم التي كانت تزداد عامًا بعد عام.

ولا ننكر من وجود الفقراء، لكن نراهم بصورة متقطعة يظهرون في الشوارع بفترات متباعدة.

انتهى أنطونيو، يفرِك بيديه وينفخ؛ يريد الدفء.

المطر ما زال ينهمر مدرارًا...

كنت استمع إليه برغبة المَعرفة ولن أنسى سؤالي.

ولكني أخَّرته عن قصد عندما قال مدينته «دوماي» تسكنها أقلية مسلمة، والآن جاء الوقت المناسب، قلت:

- أسمع في «إندونيسيا» أغلبية مسلمة، وأنت تقول أقلية، من في رأيك أصدق؟

- الذي سمعته صحيح، وما تسمعه مني أيضًا صحيح.

- كيف هذا أنطونيو؟!

- نعم، الأغلبية المسلمة في «إندونيسيا» لو حسبت السكان كلّهم على ثلاثة وثلاثين مقاطعة في البلاد، وأنا أقصد في قولي أقلية فقط في دوماي وهذا ما أعنيه.

- ما رأي الإسلام في ديانتكم البوذية.

- لم نختلف أبدًا، كنا وما زلنا نمارس طقوسنا في حرية مطلقة مع احترام واضح من كلّ الطوائف والديانات الأخرى، ونحن بدورنا نشدد على رجالاتنا ونسائنا وبناتنا وأبنائنا على احترام الآخرين؛ كي نُحتَرم، من المستحيل التعايش بسلام من غير الاحترام، الخير يأتي من النفوس المسالمة بغض النظر عن انتمائها الديني أو الاثني...

- آه، أنظر.. هيء، هيء..

ضحك وهو يمد باطن يده إلى السماء، أضاف:

- المطر يزداد غزارة.

لم يتوقف المطر لساعات، مما جعلنا نقف مستمتعين في النظر إلى الجميع من حولنا، يهرولون باتجاهات متعاقبة، يريدون الابتعاد عن البلل..

دار حديث طويل بيني وبينه مستغلاً فرصة وقوفنا، معرفة المزيد عن أمر مدينتهم التي زرعت في قلبي الراحة والبهجة في كلّ مكان من جسمي، صار من أولويات تواجدي.

قلتُ محرِّكًا في داخله البوح أكثر:

– ما رأي ديانتكم بمن يخرج عنها ويدخل الإسلام؟

أجاب بطريقة مهذبة:

– لسعادة الأجيال القادمة يجب العمل ضمن حدود العقل لا الرغبة.

– ماذا تقصد؟

– نترك هذا الأمر لكلّ فرد، لحظتها هو الذي يقرر.

قالها وانطلق إلى دراجته وانشغل بتدوير المحرك بعد ما توقف المطر.

راقب المكان...

بحذر يلمح السماء بعدها التفت إليَّ وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وهو يضغط على دواسة التشغيل حتى دار المحرك، صاح: «هيا»....

وصلنا بوابة الميناء بعد أكثر من مزاح وارتياح، ترجّلتُ من على الدراجة ببطء أشدد على وضع قدمي أرضًا، حتى أضع الأخرى تحركتُ بثبات.

انتصب قبالتي مطأطئ رأسه، معتذرًا عما قاله قبل قليل عن المكان الذي تباع فيه اللذة، أضاف طالبًا مني السماح، وزاد أنه كان يقصد المتعة لا أكثر.

بالتأكيد عفوت عنه وطلبت منه المجيء غدًا عند المغيب ليأخذني إلى منتجع (جي وان).

ابتسم موافقًا ومدّ بيده ليصافحني.

أنقدتهُ كم روبية وزدتُ فيها أجرته المعهودة، بعدها توجهتُ إلى السفينة مودعًا إياه مشددًا على مسامعه عدم نسيان موعدنا غدًا.

لم أبتعد عنه إلّا مسافة قصيرة، حتى سمعته يهتف بي يريد مني التوقف، التفتُّ، فرأيت يده الممدودة صوبي تحمل شريحة اتصال من نوع (سمباتي) تغطي «إندونيسيا» كلّها باتصال واضح ورخيص الكلّفة حسب قوله.

شكرته داسًا الشريحة في جيبي، حاولت دفع قيمتها، ردَّ يدي بلطف رافضًا المال، قال:

- من «روستريتا».

رقصَ قلبي فرحًا حتى تعب، مستلقيًا على السرير في غرفتي أقلب جوالي على أمل سماع صوتها.

لم يمض من الوقت نصف ساعة أو أقل حتى اخترق انتظاري رنين هاتفي الجوال.

- ألو.

- مرحبًا عزيزي.

- «ريتا!».

- نعم.

- أهلاً، أهلاً. «ريتا» شكرًا على الشريحة.

ثمَّ قلتُ ولا أعرف كيف تجرأت:

– أنتِ جميلة ورائعة...

ضحكتْ بنبرة حلوة بعدها قالتْ:

– ألا يروقك ذلك؟

– بكلّ تأكيد يروق لي سماع صوتك قبل النوم وبعده.

عادتْ لضحكتها المعهودة بعدها زادتْ:

– أنتَ ثمل.

– لا.. لست ثملاً يا «ريتا».

– هل سألت «أنطونيو» عن المكان؟

– نعم، نعم وهو يعرف العنوان.

– إذن غدًا عند المغيب.

– نعم، عند المغيب.

– اخلد إلى النوم ولا تشرب.

– لست ثملاً يا «ريتا».

– لا يهم أخلد إلى الراحة.

دخلتُ في دوامة الهوى.

أتقلّب على جمر السرير ليس بي نعاس.

إنهاء المكالمة دفع الليل إلى أن يحرك الشعور بالوحدة.

«لا معنى لي فوق هذا السرير وحيدًا!»، قلتُ، وهمستُ:

«ما أنا فاعل في نفسي؟».

سؤال يجدد سهادي أمام هذا الإبعاد المتكرر عن أهلي: أُمي، أبي، أقربائي، وعمتي تلك الإنسانة التي تكفّلت بتربيتي منذ الصغر، تحملتْ تدميري الرهيب لشبابها الذي توارى خلف بنائي، لم تكن المسكينة تقبل بالزواج، كانت تقول: «ابن لي من أخي وكفى».

لعل هذا سر تعلقي بها لحد الآن، أميل إليها أكثر من أُمي وباقي أهلي، ما زلتُ أتحسّس بقايا أنامل يديها البيضاء تمسح جبهتي عند مرضي، أتلذّذ كلّما وضعت يدي بجيبي، أتذكر مكانًا مليئًا بالنقود.

كانت تعرف بطريقة ساحرة كيف تروض بؤسي، تحوله -بقدرة قادر- إلى أمل يحركه الفرح في داخلي، بطريقة خفية تمحو من إيقاع حياتي الملّ، حتى نوبات جنوني المتكررة وثوراتي المتمردة تستبدلها بملاطفة وتقبيل ونصح لطيف إلى قناعة تدس فيّ الراحة، ناجحة في جعلي إنسانًا يحب المغامرة طموحًا.

حياتي معها متميزة...

تعرف كيف تحرك الإثارة في الروح المنافسة.

طاقة تمدّني كلّما احتاجت إليها جوارحي.

أَلمْ يكن من الأفضل لي البقاء في بلدي والزواج بابنة عمي؟

كلا، كلا...

هذه الرتابة لا تلائم شخصيتي، وهذا السبب الوحيد الذي دفعني إلى أن أكون بحّارًا.

قرية ساترن

في السفينة كان اليوم التالي حافلاً بالنشاط والعمل الدؤوب، الكلّ منشغل بنفسه إلّا أنا، كنت كسولاً؛ أفكر بالوقت كيف يمضي بطيئًا حتى اقترب الموعد.

نزلتُ من سُلّمها متوهج الجموح يدفعني اللقاء المرتقب إلى (جي وان)، ما أن عبرتُ بوابة الميناء حتى ركبتُ الدراجة خلف (أنطونيو)، على وجه السرعة انطلق بادئ الأمر إلى قمة جبل (بونشاك)، الأجواء تميل إلى البرودة، نتلذّذ بالنسيم عند جلوسنا على صخرة تقع في مقدمة الجبل، نطلّ على البحر، نشرب شرابنا، نتمتع بجمال الأفق قبل المغيب، كنت أتنشّق عطرًا لذيذًا عندما قلت:

- للجبل رائحة تميزها عن كلّ طيبٍ في الدنيا.

ضحك (أنطونيو) قبل أن يقول:

- تملك حاسة شمّ قوية.

لذتُ بالصمت برهة، أتخيل لو كانت (ريتا) معنا، بعدها قلت:

- كم من الوقت للمغيب؟

أجاب بصوت أجش:

– دقائق.

كانت عينا (أنطونيو) تزدادان حمرة، تبحثان في أعماق الأفق بذهول عجيب...

هبّت لفحات هواء عليل، أدار برأسه صوب البحر، يحظى بنظرة أخيرة...

تنهّد، قال:

– هيا!

كنت إلى جواره حين هبطنا الجبل، تجاذبنا أطراف الحديث، أفرغ من كلامه شيئًا من الهمِّ، يبدو من تنهداته كان جاثمًا على صدره، سألته:

– ما بك؟

– أتمنى من الحياة طفلاً يزين لي بقائي..

ثمَّ زاد عن حبّه الكبير الذي ملأ صدره تجاه زوجته، يُبرئها من عدم الإنجاب، يلقي باللوم كلّه على نفسه.

بحرقة، قلت:

– لا تيأس.

تأملني في ولَهٍ، ثمَّ أرغم نفسه على الضحك، بعدها انطلق بي إلى منتجع (جي وان).

لم أكن أحسب حساب المستجدات عندما طلبتُ منه الرحيل فور وصولنا، بقيتُ وما بقيت؟

وحدي أفكر في طريقة وصول (ريتا) والهيأة التي ستكون عليها، لا شيء يدوم معي طويلاً، في عالم التفكير عند الانتظار الممل ضعت، أنا الغريب الذي لا يعرف أين يذهب؟

طال الانتظار حتى غابت الشمس.

أأنا الذي تأخر؟

أَمْ هي التي لم تحضر بعد؟

تَلَبّسَ وجهي بشيءٍ من الاهتمام والحذر، كنت جادًا في الانتظار، لا يمكنني مغادرة المكان بدونها.

ارتفع الليل بسرعة، هبط الظلام أسرع، صار القمر واضحًا والنجوم في أعالي السماء، فكّرت في الاتصال بها.. فعلت، لكن لا أحد يرد!

هل غَيّرت (ريتا) رأيها؟! لا أعرف

والذي بقي الأوهام..

أتراها جعلت مني مزحة رفيقاتها؟!

بَرقتْ في ذهني هذه الجملة، جعلتني أغلي من الداخل، تراءى لي أنني تأخرت عن الموعد، كنتُ أحاكي الجدار بصوت حادٍّ، غاضب، ولسبب لا أدريه تذكرت معاملتها الطيبة، صفاتها العجيبة...

برزت لي ابتسامتها الجميلة من ضياء المصابيح الملونة، هدأت، لكن الوقت يمضي ولم تحضر بعد، سرّ تأخرها مازال

يحرّك في قلبي وجع الشك، فجأة وأنا في مرارة الانتظار، رنَّ الجوال، على الفور أجبت؟

كانت تعتذر متوسلة تريد مني اللحاق بها عند الكازينو، تحجّجت بعدم معرفتي العنوان..

وصفته لي.

احترت وغاصت الكلّمات في حلقي، لوقت ليس بطويل استجمعت فيه ما تعلمته من حزم وقلت: «لن أبارح مكاني حتى تأتي». وافقتْ بخفة روحها ورقة تعاملها، قالتْ مقهقهة:

- حسنًا، حسنًا ابقَ مكانك، سأصل خلال ثوانٍ.

طال انتظاري بمرور الدقائق البطيئة.

ماذا أفعل؟

لا طاقة لي على الانتظار.

لمْ أعد مهتمًا بما كان يهتم به الآخرون أمامي، السائحون يضحكون وهم يدخلون، غيرهم يغادرون، استسلمتُ لرغبة الجلوس والحيرة...

كان يبدو غريبًا أن تتمكن مني فتاة بهذا الشكل وأن تستحوذ على مشاعري إلى هذا الحد، لم أُخيِّرْ. أفكر فيها كثيرًا، يبدو سأبتهج برؤيتها؟

- (سي).

صوتها الذي يأتي من الخلف يرنُّ في أذني.

ها هي تتقدم نحوي.

نعم، ها هي ذي، كالحُلم تتقدم نحوي من بين الحشود بعينيها المتألقتين مع ابتسامتها الحلوة، كأنها هبطت من السماء مثل طائر الحبّ الأبيض، في عيني تسير فوق الأرض، تلبس ثوبًا أحمر بياقة بيضاء، تنشر ذراعيها العاريتين على أجنحة ترفرف؛ تريد معانقتي.

ارتميتُ في حضنها منحنيًا لها، شبكتُ يديّ خلف ظهرها، مثل مشهد حبّ من فيلم رومانسي حملتها على صدري أتشمّم عنقها أغوص عميقًا في بحر رائحتها، كان وزنها خفيفًا يَلفّهُ دفء اللقاء، حطّها على صدري. مبتهجًا قلت:

- أين كنتِ؟

لكن عليَّ أن أغير الموضوع فسألتها:

- لِمَ تأخرتِ؟

يا لغبائي يجب قول شيء أهم:

- انتظرتك برعب.

ضحكتْ ثمَّ قالتْ:

- لم أستطع ترك الكازينو من غير قائد؛ كما تعلم أنا وزوجة (أنطونيو) ندير المكان ويجب حضور واحدة منا...

- .....

هزّتْ كتفها؛ لتضيف:

- انتظرتها حتى وصلت، فأتيت.

- لا يهم... الأهم أنت أمامي الآن.

- صحيح؟

زادتْ وهي تميل برقبتها إلى كتفها مبتسمة:

- وما تنوي فعله بعدما صرت أمامك؟

- أترك الأمر لك.

هتفتْ بجد واضح:

- إذن تعال.

انطلقتْ بي إلى الشارع، فقلتُ متفاجئًا وأنا أهرول خلفها:

- إلى أين؟

أعطتني خوذة بيضاء وقالت:

- ضعها على رأسك واركب خلفي.

- ماذا! أنت تقودين دراجة؟!

- اركب.

لبستُ الخوذة طائعًا..

في لحظة كنت فيها ساكنًا بجلوسي خلفها مثل إنسان يصل غايته، أغمض عينيَّ، أنشق الهواء ملءَ صدري في انطلاقها بي مسرعة إلى شارع انتصبت على ضفتيه أشجار

باسقة، تفوح من أغصانها الغنّاء بين الفينة والأخرى رائحة الأرض العبقة فيها الأرواح تبتهج.

لوقت طويل بقيت محلّقًا في عقلي بعيدًا كلّ البعد عمّن حولي، أسمع الغناء اللذيذ ناسيًا من أكون، إلّا أنني أتذكر شيئًا، عندما انعطفتْ بي يمينًا ولمسافة أمتار توقفتْ، ثم ترجلتُ من على الدراجة، عندها رأيتُ إننا نقف أمام قرية بيوتها من القش والخشب، تحيطها غابات من نباتات الشاي والبنجر، هناك ولمسافات بعيدة من القرية أشجار الموز، سألتها:

- أين نحن؟

ركنتْ دراجتها إلى جدار كانت تزدحم عليه دراجات كثيرة وصلت قبلنا ثمَّ التفتتْ إليَّ وأجابتْ:

- في قرية ساترن.

- ماذا؟

انفجرتْ ضاحكة مثل فتاة صغيرة تأبطتْ ذراعي وقالتْ:

- تعال وسترَ.

اتخذنا طريقًا ترابيًا يرتقي إلى تلَّة خضراء، في أعلى قمتها نار حولها أناس كثر بملابس ملونة.

أشارتْ بيدها إلى المكان، هتفتْ:

- انظر هناك.

- ما هذا؟

- هؤلاء أهلي، وهذا الذي تراه الآن هو تقليدنا السنوي نجتمع فيه ليلة واحدة من كلّ عام، وأنت اليوم ضيفنا.

- كيف وأنا هكذا!

- ما بك وأنتَ هكذا؟

كانت بين ذراعيّ تهتز راقصة تنشد:

- صحيح تبدو مثل خارطة العالم من حذائك وحزامك الإيطالي وقميصك الفرنسي وبناطلك القصير، لكن شكلّك وطول قامتك وعرض منكبيك وسمرة بشرتك يؤكد لي ولهم أنك عربي، فلا تكترث إلى هذه الشكليات وتمتّع بهذه الليلة معي.. هيّا.

- هل أحملكِ على كتفي؟

ضحكتْ وهي تميل برأسها قالت ويدها على صدري:

- لا أشكُ في ذلك، لكن أحب السير معك.

يبدو أن «ريتا» تعرف جيدًا أين تقودني، بين يَديها أتحرك بثقل وهي تحت ذراعي اليمنى تلفّنِي بذراعها اليسرى، نترنّح بصعودنا التلّة، من فرط الضحك سقطنا الأرض، كانتْ الطريق الترابية زلقة، مازالت الرطوبة مستمرة؛ بسبب الأمطار التي تركت برك ماء في مناطق مختلفة على مسافات متقاربة تركت الأقدام أثرًا على الطين من الذين سبقونا في الصعود، كانت آثارها تؤدي إلى الأعلى، من حولنا بنات

الأزهار الواقفة نظّفتها الأمطار، بينما كانت جذوع الأشجار المقوسة مغطاة بطبقات من الطين.

مَدّتْ «ريتا» يدها إلى الأغصان وهَزّتها عبثًا، تناثرت من الأوراق قطرات ماء لفحت وجهينا وبلّلت ملابسنا، سمعتها تضحك، وعندما رأيت السرور نابعًا من أعماق قلبها ضحكتُ معها وفكّرت في نفسي أنني في الجنة، على الرغم من تخبّطات أقدامنا في البرك المائية، وتلوث أطرافنا بالوحل كنا في غاية الاستمتاع، نسير مثل عصفورين بلّلهما المطر يبعدان الماء باهتزاز جسديهما، إلى حد الركوع في الصمت قلت في نفسي: «إنها من النساء اللطيفات اللاتي يشبهن قطرات عسل».

عدت إلى قلبي الذي ساقته العواطف أحلم، سمعت (ريتا) تغني: «لقد كنت معك في داخل عقلي وفي أحلامك، هلو، أنا ما كنت تبحث عنه؟ هلو، أنت وحيد في مكان ما؟ لكن أتركني أبدًا أقول ... أحبك».

اشتد خفقان قلبي عند سماعي تلك الأغنية! أنها المفضلة إليَّ من بين عشر أغان أجنبية للمغني الشهير (ليونيل رتشي).

يا إلهي، سيطرت على نفسي حالة من السكون والمتعة، شعرت بهما أنني في مكان يشبه الخرافة، حتى ظهرت أمامي فجأة صورة شارعنا الطيني المؤدي إلى بيتنا هناك في مدينتي، على الرغم من شحّ مظاهر التّرف فيها إلّا أنها

مازالت عزيزة في نفسي.

ممسكًا بيدها عندما شعرت بألم في صدري من مساحات الفرق التي بدت شاسعة طويلة، تنهّدتُ، نظرتْ إليَّ. نظرةٌ شعرتُ فيها براحة الاطمئنان التي ما زالتا تهمس: «هي لي وحدي، عليَّ اتخاذ القرار».

تفكير طويل، دارت فيه معارك كثيرة، استجبت للقدر، عدت مرة أخرى للتنهّد، هذه المرة أطلقت العنان لصوتي:

- رائع!

لم تكن (ريتا) تسمعني؛ كانت تصغي لصوت قرع الطبول المتناسق، تأكد ذلك في هدوء تقول:

- وصلنا.

لم تترك لي فرصة كي أبصر، أشبه بالبرق مضتْ، ترفع رأسها وتنزله على روحي النابضة بحُلم طفولتي، ككأس ياقوتي فمها المفتوح يضحك، راقصة تتصاعد فوق الأشجار، تتنطّط بمكانها، تحفر في الريح راكضة إلى حلقة رسمتها أجساد ملونة شبه عارية تعلو، تهبط، تهتز، راقصة..

لم أكن أعلم من المستحيل أن أميّز ملامح الراقصين هناك، كانوا خليطًا عجيبًا من الألوان تتمازج حتى تشكلّ لوحة تشبه الفلكلّور.

كنتُ في زهوٍّ أتأمل السحر مندهشًا، أدير طرفي مرارًا أتفرّس فيما أراه، أيّ مناظر غنية تنكشف لي، صغار الأشجار

على طول السفح تحيطها أخواتها الباسقات تتدلى من الأغصان المتشابكة قلائد فاكهة، تشعّ نضارة طازجة وأخرى نامت فوق البساط الأخضر تحت قبة سماء كانت صافية، كلّ هذا كان له أن يسهم في ترك الكلام جانبًا، لا يغيب عن العين الصغيرة شيء.

خلال وميض لهيب النار ألمح بعضَ وجوهٍ حملتها أجساد شبه عارية سمراء تبرق مرة وتخبو أخرى، تلتمع منها أسنان بيضاء من أفواه صائحة تتسع ضاحكة تحت بريق عيون دامعة من فرط البهجة، توّجت رؤوسهم بأكاليل من صغار الورد الأبيض والأحمر تشبه التي علقت في أعناقهم قلائد.

كنتُ الوحيد بينهم مختلفًا في لباسي اختلافًا كان واضحًا من وقفتي المنعزلة، أرتدي قميصًا أبيض مطرّزًا بالورد الأصفر الفاقع مثل لّون (بنطالي) القصير الذي كان يفضح طول قامتي عنهم، لكن لم تكن (ريتا) تخفي سعادتها بي.

جلستُ في مكان قريب خلف دائرة الراقصين، أصفّق مع المصفقين على وقع الطبول مبتهجًا، لا أعرف كيف تصرفتُ حين ألبستني امرأة عجوز قلادة من زهور الفُلّ، وطلبت مني الرقص، في البدء احتميتُ بأعذار خلقتها عن قصد ممتنعًا، لكن إلحاحها النقي بطريقة ودودة دفعني إلى الانصياع، وقفتُ ويدي تبعدُ ترابًا التصق بي، أتقدم خطوات يلعثمها خجلي بعض الشيء، خجلي الذي زاد عند وقوفي وسط دائرة الأجساد الراقصة التي لم ولن أنسَى تلك اللحظة التي نشرتُ

فيها ذراعيَّ، أدور برقبتي وأهزّ بخصري مغمض العينين تحرّكني قرع الطبول بسرعة حد الطيران، لم أنتبه لإعجابهم بي، كنت محلّقًا في خيالي أهزّ بجسدي الذي صار خرافة يرقص على ضربات الطبول المتناسقة باستمتاع وراحة، إلّا بعد توقف الموسيقى وسماعي حرارة التصفيق، حينها فقط فتحتُ عيني، رأيت عيونهم تتسع من السعادة، يصفقون لي بحرارة.

تصفّد العرق بجبهتي متسمّرًا بمكاني، أنظر بذهول إلى من حولي كالأبله...

لا أعرف ما أفعل؟

سحبتني (ريتا) من خارج الدائرة تضحك وهي تهنئني على رقصتي التي نالت استحسان أهلها، طبعتْ قبلة صافية على خدّي وما كانت قبلة وحسب، كانت وشمًا رسمته في قلبي، إلى الآن يجرّني الحنين إليها جرًا.

جلسنا برهة نلتقط أنفاسنا؛ نتفرّغ للحديث معًا، لكنها مضتْ، عادت تحمل معها عصير (المانكو)، يبدو شهيًا من رائحته الفواحة، شربنا ونحن نتابع الحفل ضاحكين..

كان ثمَّة كرنفال يحصل، طقس سنوي تقيمه العائلة، ليس إليَّ منه إلّا الاستمتاع ما دامت (ريتا) معي التي تنهّدتْ بعد توقف قرع الطبول، قالتْ:

- انتهتْ الطقوس.

رفَّ الشيء نفسه في صدري عندما اختفت الوجوه الضاحكة التي كانت على الأجساد الملونة، رأيت آخرها يبتعد ودهشتي خلفه من حركة هبوطه السريع عند السفح، كانوا ينحدرون من الأعلى إلى الأسفل كانحدار المتزحلق على سفح جبل من الجليد فرحين، تلفتُّ إلى من حولي، لم أجد إلّا أنا و(ريتا) نجلس حول النار التي بدأت تخبو، حاولتُ الكلام، لكن نهوضها بطريقة مفاجئة رماني في دائرة الصمت..

منصاعًا أتبع يدي التي مازالت عالقة في يدها أنفذ قولها:

- تعال.

تابعنا طريقنا متشابكي اليدين نهرول ونضحك بنزولنا السفح، وقفتْ (ريتا) عند الدراجة، أخذت مكانها ثمَّ أعطتني الخوذة منشغلة بتدوير المحرك، ضغطت على دواسة الوقود، زأر المحرك واندفع من ورائه دخان كثيف، رمقتني بنظرة خاصة، قالت:

- ألا تركب؟

انصعتُ إليها بغرور وهي تنطلق بي على طريق من الإسفلت، على ضفتيه تتسع الغابات كلّما تمعنت النظر أبعد، الهواء المصحوب برائحة الأشجار يلفح وجهي يجعلني مستمتعًا بها أشعر بالراحة، ألفُ خصرها بذراعيَّ أشبك يديَّ بقوة عند صدرها، أضع خدّي ملتصقًا بظهرها، أشمُّ رائحة شعرها، غافيًا بالنشوة، صاحت:

– سي، إلى الميناء؟

قلتُ ولا رغبةَ لي في القول:

– نعم.

بغضون دقائق وصلنا الميناء، للأسف وصلنا بهذه السرعة!

ترجلتُ متثاقلاً أمدُّ يدي مصافحًا يدها..

الحقيقة كنت أريد لمسها بطريقتي الخاصة، شعرت بحلاوة الأيّام القادمة معها، قلت لنفسي: «ما سوف يحصل بيننا في المستقبل من حبّ، أرغب فيه بكلّ كياني».

بقيتُ أتأمل في وجهها ويدها بيدي يملؤني لون القمر الأبيض الملتصق في خديها ثورة تتجاوز إمكانيات تربيتي، تنقلني عيناها إلى حيث المرافئ الكونية، تشعرني بجمال الحياة وزهو شبابي.

كنتُ أسائل نفسي في تلك اللحظة عن شيء حاسم ما سأفعله، لكن حركة أمواج عينيها المفاجئة دفعتْ شفتيها إلى الابتسامة إلى وجهي كانت لها ألف حكاية وحكاية، ألقت في رأسي البلل الذي حرك في نفسي مشاعر حبّ تجعلنا نتخشب بمكاننا ولا نعرف سبب العجز الذي يأتي ليس في أوانه...

كنت أشتري بقاءها بعمري، ابتعدت عني بدراجتها مسرعة، انعطفت شمالاً.

نسيوس

في الصباح كان الجوّ باردًا شبه غائم، أعرف ما يفعل هذا الجوّ في هكذا مدن تقع على البحر، الغيوم تأتي فجأة تحجب الشمس، تمطر بغتة.

بالفعل لم تمضِ حوالي الساعة تقريبًا حتى أنزلت السماء من غيومها السوداء جيشًا من المطر.

أستمر هطوله حتى الظهيرة.

الكلّ في السفينة متأهِّب للابتعاد عن الميناء ميلاً واحدًا؛ لنقف كما تقف السفن عند منطقة الانتظار، نتزود بالوقود قبل كلّ إبحار طويل...

سفينتنا التي أفرغت حمولتها، عليها المغادرة، لترسو على الرصيف سفينة أخرى محملة.

لم ينقطع الاتصال مع (ريتا) ما زلتُ أطلعها على أمر تحركاتنا ومنطقة وقوفنا وموقفنا المتأهّب للإبحار، هي تنتظرني بلهفة، وأنا انتظر وقوف السفينة بقلق؛ كي يأتيني (أنطونيو) بزورق يقلّني فيه إلى الرصيف، بعدها إلى (يونغ يو) على ظهر دراجته النارية.

بدأت السماء ترعد وتبرق منبئة بهطول الأمطار مرة أخرى، على بعد ميل واحد من الميناء توقفت السفينة، ألقت مرساتها في عمق مياه منطقة الانتظار (نسيوس)، علمتُ من صديق لي (رئيس البحّارة) مقرب إلى القبطان أن الإبحار غدًا عند الساعة الخامسة فجرًا.

نصحهُ لي بعدم ذهابي إلى المدينة والبقاء على ظهر السفينة مثل باقي البَحّارة خوفًا من أيّ طارئ يُستجَدّ لم يثنِ من عزمي القوة، بالتأكيد لم أصغِ له.

على الفور اتصلت ب (أنطونيو) أطلب منه الزورق.

لم يمضِ من الوقت ساعة واحدة أو أقل حتى كنت أمام (ريتا) أشمُّ برائحتها التي أدمنتها في عناق كان للآخر ضالته الطويلة التي تنتهي بطبع روج شفتيها الأحمر على خدي من قبلة كانت فيها متعة تمنيتها في مكان آخر.

بدأت حياتي ترتسم أمامي، تقريبًا اتخذت قراري؛ لا عودة إلى السفينة، عليَّ البدء بحياة جديدة، قلت لنفسي: «دع السفينة تبحر من غيري».

سأبقى مع (ريتا)، فاتحتها بما جال في نفسي، نظرت في وجهي بدهشة، قالتْ:

– ماذا!!

– مثل ما سمعتِ، ستبحر سفينتي بعد ساعات ولا أريد....

لمستْ فمي، تشيح بوجهها عن وجهي، همستْ:

– لا، ثمَّ مضت منزوية بمكان قصي، باكية وكأنها لم تبكِ من قبل!

تبعتها حزينًا أتوسل عينيها الكفّ عن البكاء...

رفعتْ رأسها تحاول ألا تنظر وجهي، مدّتْ يدها تشدّ بقبضتها على يدي أضافتْ:

– تعال معي.

تبعتها مسافة ليست قصيرة...

أسير خلفها يبللني المطر كما يبللها، ألوذ بصمتي أتخيل القادم؟

دخلتْ بي كوخًا تفوح منه رائحة بخور، مبنيًا من الخشب والقش، يقف من الخارج على أعمدة من الخشب كبيرة.

لم يكن في الكوخ سوى سرير وكرسي وطاولة واحدة وملحق صغير، عرفت إنما هو غرفة مطبخ يلتصق بظهره حمام صغير.

لم أستطع تمييز باقي الموجودات من شدّة الظلام حتى أوقدت (ريتا) شمعة اخترقتْ الظلام فكشفتْ صبيًا يجلس على حافة سرير دون حراك!

لم يكن قد شعر بوجودي بادئ الأمر؛ كان بصره مركزًا على لعبة بين يديه، وعندما تحركت عظامي في تقدمها نحوه، خرج صوت أزيز من وقع خطوات أقدامي على البلاط الخشبي، مما دفعه الانتباه، استدار نحوي بدهشة تحمل

ربما سؤالاً بريئًا: «ما سبب دخولي عليه برفقة أُمه؟!».

جلستُ إلى جانبه بهدوء أتلطف نظراته متصنعًا الوداعة أتمنى قبولها حضوري معها إلى الأبد.

هكذا على غفلة من تركيزي سمعتُ (ريتا) تطلب منه مغادرة الكوخ فورًا، رفضتُ بحزم وطلبت منها الإبقاء عليه، أين يذهب في هذا الليل؟

هزّتْ رأسها رافضة وقالت وهي تضع الشمعة قرب ستارة بيضاء:

- عند جدّته.

غادرنا الصبي راكضًا يحمل على صدره دميته يُعلن عن حضوري صائحًا!

خلال لحظات دخلت امرأة عجوز نحيفة منحنية الظهر سمراء بسحنة سوداء تلف شعرها حتى صدرها بوشاح أحمر.

تأملتني بتمعنٍّ ثمَّ أشارت بحركة من يدها إلى وجهي... ابتسمتْ!

تساءلتُ إذا ما كانت هذه العجوز تُحيِّيني بطريقتها؟

أَمْ هو شيء آخر لا أفهمه منها؟

تأملتها بصمت وهي تسير سير الدخان صوب الخارج.

كانت (ريتا) هي الأخرى تتحرك تثير انتباهي بتحركاتها المنفعلة، أزاحت الستارة البيضاء الشفافة المطرزة بالورد

الملون إلى جنب، انكشف لي تمثال من النحاس، يلمع ببطن ممتلئة، يطبق باطن يديه أمام أنفه، راحت تسجد أمامه ثمَّ ترفع قامتها وهي تُتمتم بكلّمات لا أستطيع سماعها وبعدها عادت ساجدة حتى انتهت تنتحب باكية. كان المشهد يقلقني!

شعرت بعدم الارتياح عندما غطّتْ التمثال وتقدّمت نحوي تقول:

– لقد سامحني على كذبتي.

– أي كذبة؟!

حطّتْ يدها على يدي وطلبتْ مني ألا أحقد عليها بسبب كذبة كذبتها في إنها أرملة!

«ماذا!!».

زوجها الذي قالت عنه قد مات في تسونامي ما زال حيًّا!

يعمل كمهندس تصميم في أحد مصانع العاصمة جاكارتا للملابس الجاهزة، وموعد عودته إلى البيت غدًا أو بعد غد على أبعد تقدير.

«ماذا!».

كأنها لم تسمعني، أشاحتْ بوجهها، تنظر إلى الأرض، بسكون عجيب تنظر إليَّ من خلف حواجبها، يحرقني صمتهما.

– لكن....

قاطعتني وهي تقول بصوت مبحوح يقطعه البكاء:

– كنت استميل قلبك؛ كي تعود زبونًا دائمًا للكازينو لا أكثر.

كان المطر المنهمر في الخارج يضرب السقف بنسب مختلفة.

الظلام الحزين داخل الكوخ يخترقه وميض برق متعرج متوهج من خلال ستائر النافذة التي كان يهزّ شباكها عصف الرياح بقوة.

شعرت بتقلص في معدتي...

حاولت الصياح بغضب لكنني عجزت.

انسدتْ حنجرتي واشتد خفقان قلبي بصورة كدت أسمع أصداءه في أذنيَّ.

حاولت التنفس مرات ومرات لكن الكوخ بدأ يتقلص من حولي حتى صار صغيرًا جدًا.

أحسستُ بالمكان يتقلص وقد ضيَّقَ على أنفاسي!

جدرانه تقترب نحوي ضغط صدري بشدة!

مددتُ يدي إلى وجهي وقفزت نحو الباب الذي بتُّ لا أعرف أين مكانه، ساقاي ويداي لا تعرفان إلى أين، متخبطًا اصطدمتْ جمجمتي بجدارٍ رماني أرضًا.

تأملتُ قلبي الذي بدأ يؤلمني من ضربات القدر.

اختلطت الأصوات المتشنجة وتشابكتْ مع بعضها، من جديد عاد البرق يتوقّد داخل الغرفة، مرة ثانية الرعد الذي كان يعوي في الخارج ردّد صداه الداخل وكأنه قرع طبول شجار محتدم.

رسمتُ لنفسي مسارًا طويلاً وعميقًا.

أُخذتْ الكلّمات من حلقي دفعة واحدة، ظلت اللغات راقدة، راحت الشفتان تنطويان تحت ثقل ما سمعته للتو.

لا أدري ما غلّف جسدي بسرعة؟

رحت أبحث في عينيَّ المغمضتين عن جواب للأسئلة: «ليس هناك مكان أذهب إليه!».

فكرت، ثمَّ قلت: «ما الذي يحدث لي؟».

لا أريد الصياح.

صوت خفيف خفيض أجبرني الإصغاء، آثار يد تروح وتجيء على كتفي تحركني للنهوض.

شارد الذهن لا أعرف ما يحصل لي؟

وما الذي يجري من حولي...

(ريتا) أمامي...

تسير في بطء...

تستدير حولي...

تخفض عينيها إلى الأرض...

خجولة...

وجهي قبالة وجهها...

توقفتْ عن الحركة.

مثل طائر وديع تأملتني بحذر...

كانت تبكي بصمت ولا تريد النظر في عيني...

قالت بصوت يهزّه البكاء:

- اسمع..

نظرتُ إليها..

- عليك البقاء هنا الليلة.

..... كدت أقول: «لم أفهم...؟».

سبقتني على الكلام:

- لا حاجة للكلام الآن...

- أنا.

- عليك البقاء هنا الليلة.

- لا.

- الذهاب وحدك في هذا الوقت فيه خطر على حياتك.

العاصفة

هكذا انهار كلّ شيء مرة واحدة، في اللحظة التي بدأت فيها لا آمن على نفسي من الغضب، قصفتُ الأرض بقدمي، وخرجت إلى الشارع شارد الذهن، كان من الصعب جدًا الوقوف في خضم هذه الريح المتوحشة التي زعقتْ بشكلّ أكثر قسوة، أسقطتني على وجهي.

أتحامل الوقوف، أبحث في داخلي عن قوة تجعلني ألا أخشى هذا الموقف العصيب، لمسافة لا أعرف كم أقدرها سرت في انحراف مزاجي عجيب غريب، يزداد حِدّة كلّما تقدمتُ متعثرًا بالوحل، مبتلاً من رأسي حتى قدمي، تتصبب ملابسي ماءً وجسمي عرقًا، لم أتمالك نفسي، أُقاوم السير بثبات تحت مطر كان ينهمر مدرارًا على طول الطريق، لذتُ إلى الرصيف الحجري؛ أخشى ولا أخشى ثمَّة خطرٌ قادم!

كان الجوّ يبدو حزينًا من شدة الظلام، قاسيًا من زئير الريح التي لا تكفّ عن الصفير، تحمل حبّات مطر حزينة هي أيضًا، تصطخب مثل الموج العنيف في رأسي تتلاطم الأشياء بعضها ببعض.

لم يبزغ من الظلام ضوء، إلّا توهج البرق المتعرج، ومضةٌ من بين سواد الغيم، لم أتبين أين أنا؟ أو إلى أين أذهب؟!

كنتُ تائهًا تمامًا، لا أتذكّر جيدًا عندما وصلت إلى مفترق طرق هل انعطفت شمالاً أو يمينًا؟ لكن ما حدث لي في ذلك الشارع الضيق أتذكره، لقد ظهر من وسط الشارع رجلان يرتعشان من البرد، تتصبب ملابسهما ماءً، يلاصق شعرهما المبتلُّ وجهيهما المزرقّين، يبرق من عيونهما اللامعة شرٌّ أحمر، يحمل أحدهما سكينًا والآخر عصا؟! حاولتُ تجنّبهما بالسير جانبًا وعدم النظر إلى وجوهيهما، إلّا أن أحدهما صاح بي بلغة لم أفهمها ولم ألحق الالتفاف إليه حتى ضربني على ظهري بالعصا وهو يردّد بكلام لم أستطع فهمه؟!

تصرفتُ بطريقة دفاعية، سريعًا هجمتُ عليه صائحًا به بكلّ ما عندي من قوة في وجهه، ارتميت عليه غاضبًا أمسك العصا التي كان يلوح بها إلى وجهي من الوسط، سحبتها بعنف مفرط فكانت بيدي، أشدّ على نفسي أريد الانتقام منه، كان أمامي أضرب به وأصيح شاتمًا أهله بلغتي التي لم ولن يفهمها هو أو صاحبه الذي كان يسقط وينهض يحاول الابتعاد عن مكان شجارنا هاربًا.

شعرتُ بذراعين تلفني من الخلف، صوت قريب ليس بغريب على مسامعي يطلب مني الهدوء، أبعدته عني، متلفتًا إلى مصدره، رأيت (أنطونيو) يتوسلني أن أهدأ..

طبعًا هدأت وبهدوئي هذا جلست على الرصيف أمسح وجهي المبتل مهمومًا ألعن يومي.

طلب مرافقتي...

نهضت متثاقلاً أتّكِئُ عليه حتى وصلت إلى مخلوقة تحمل بيدها مصباحًا وفي الأخرى مظلة شاحبة راجفة، لم أستطع معرفتها حتى سمعت منها ذلك الصوت الذي كانت نبرته الودية تثير في نفسي الراحة بعض الشيء وتثير القشعريرة في الوقت نفسه، كانت هي، (ريتا) توجه ضياء المصباح نحو وجهي من دون أن أعرف السبب.

ظننتها تبكي عندما طلبتْ من (أنطونيو) حملي إلى الكوخ على كتفه..

حركني وأنا أحاول الثبات في مكاني رافضًا، لكنه حملني بحركة خاطفة على كتفه وهرول بي إلى الداخل...

نعم، أعادني (أنطونيو) إلى (ريتا) التي دخلت خلفنا، بالفعل كانت تبكي...

تأكد لي ذلك عندما رأيتُ وجهها الذي كان يتوارى حزنًا وهي تنحني إليَّ بهدوء تحاول مدّ الغطاء الصوفي على طول جسدي المستلقي على السرير...

لكن لم أهدأ؛ رؤيتها باكية وترت خيوط أعصابي..

تمنيت لو حضنتها وبكيت معها، لكني أبعدت الغطاء عني بغضب وقفزت أجرُّ بقدمي نحو الباب أصيح ب(أنطونيو) أريده اللحاق بي...

لم أكن مهتمًا بشرحه طريقة وصوله والخطر الذي كان يرافقه وهو يسير بدراجته النارية مسرعًا في وسط العاصفة

التي كانت تفتّت الأشياء وترميها على الطرقات عندما اتصلت به (ريتا) تخبره طريقة مغادرتي في هذا الجوّ العاصف غاضبًا وحيدًا...

يريد معرفة مصيري.

لم أحفل به أيضًا.

لم أكن مهتمًا أيّا اهتمام في الطريق، لم أرغب سماع المزيد؛ كنت أعذّب نفسي بصدى كلام (ريتا) المحمل بذكريات كانت ومازالت عزيزة على قلبي.

في السفينة وبّخني القبطان وبعضٌ أصحابي؛ إذ كان الإبحار قبل ساعة وبسبب غيابي كان التأخير، كان بمقدورهم الإبحار بدوني، أو على الأقل أن يتصلوا بي، لكن لا رغبة لي في الردِّ، لذتُ بالصمت الطويل، استرجع المشهد كلّه من أول لحظة لقاء حتى آخر نظرة وداع، للأسف لم يكن بالطريقة المعهودة.

رغبات مكبوتة

أغلقتُ نافذة الشمس وفتحتُ أخرى، بلا عنوان ضممتُ خافقي وقلت إن الحبَّ ينهار في زمن حلّتْ فيه خطوة ورحلت أخرى على خارطة جسدي الذي لم تزهر فيه بعد إلّا قُبلة واحدة رأيت فيها العجب..

قُبلة رَسمت في قلبي الكبير نافورة جراح لم تلقِ الشفاه فيه بلسمًا بعد.

في مشهد الرحيل هذا، لم يكن بمقدوري إلّا أن أشير صوب طائر البحر الذي كان يحلّق في الأجواء يثير بصخبه الليل معلنًا عن عودته إلى أفراخه سالمًا.

صوت البكاء شنَّ في داخلي حربًا صادر فيه النظر من فوق عتمة الأمواج، تبتعد كلّما ابتعدنا عن الميناء تحمل معها ذكرياتٍ متعذرةً بعثتها الروح مع أول ضياء دقّت فيه أوجاع مقبلة لساعات قادمة من ليل سيكون فيه الوقت ثقيلاً مؤلمًا يطول فيه السهاد.

قدري أُشير إلى المرافئ مودِّعًا...

لا خيار لي الآن إلّا أن تدمع عيناي وأنا منشغلٌ بعملي، لكن لابد لي من التجلّد والمضي إلى الأمام وترك الأشياء الحلوة

ورائي.

«وداعًا»، كلّمةٌ لا بدّ لها أن تُقال، لكن يا لها من كلمة!

يرنّ فيها صوت الأسى وألم الحزن المندفعان مثل البرد القارص إلى الأجساد الساخنة، يصلان قلبًا يجلس على حافة الهمِّ، يائس الوصال، منكّسُ الرأس في بساتين الصمت وحيدًا، ما زالت في ذاكرتها أغصان خضراء ندية تتسلق ضحكاتها المدوّية جدار الأيّام.

«وداعًا»...

كلّمةٌ تضرب فيها النفوس دفوف البكاء، محال وفي لحظة انفصال كانت المستحيل بالنسبة إلى حبٍّ نادته الحياة فأشاح بوجهه عنها، يحاول التجلّد في النسيان، لكنّ هذا هراء.

ها أنا أحفظ في غرف عقلي الروائح التي شَممتُها طول طوافي على طرقات حفظتُ أغلب أزقتها، الأصوات التي سمعتها ما زالت عالقة في ذهني، الواحدة تلو الأخرى أحفظ ترتيبها.

الحبُّ رقيقٌ جدًا لكن قويّ، يفرض البوح على التأمل بوجه الضوء ناحية الأحلام، ينشد الكأس على التسليم في الأوهام، يحرك الخافق بضجيج لا ينفكّ فيه الصياح قبل أن تسود في الصدر نشوة الهدوء والإصغاء.

قلبي تهزّه الذكريات هَزّ الزلازل للحياة.

إذن وفي علمٍ من خافقي المضطرب الحزين كان المطر يزداد والبرق يرسم بين الغيوم السوداء خطًّا متوهجًا متعرجًا، يتعالى منه الألم في الصدر.

الضوء الذي يأتي طعنًا، والأمطار كالأجراس تتعالى أصواتها في رأسي، بينما الجسد الطازج ذو الوجه المتألم تجرحه اللحظات يعدو سريعًا خوفًا من الألم يطير فوق الأرض يلامسه الهواء ملامسة الروح لفتحات الناي.

لا أستطيع النوم وأنا في انتظار ميناء آخر، فيه طعم آخر، حتى شكلّه الآخر فيه أناس غرباء؟

عليَّ التفكير بشيء غريب أخالط فيه الغرباء.

حياتي وقبل كلّ شيء هي جراح بحجم خارطة البحار، جسدي الطازج مثل الموج يواجه الصخور منتصبًا يرتطم بجنون، يتناثر منه رذاذ الأمنيات، فمي طعمه غريب، جسدي يمتد في حزنه فوق المدّ ترسمه الرمال بلا نهاية ولا بداية.

من الآن وصاعدًا هذا قدري.

مثل مشهد درامي أقبّلُ يدي وأرفعها ملوّحًا لمن هُم ورائي على لحن سيل تدفق دمعات.

دمعات بكْر طاهرة تمسح خطايا خدّي الذي أتخمته قبلات (ريتا) الملونة، تنسف برحيلها ما تبقّى من وداع صامت مؤلم على الرغم من زحام العابرين.

لم أكن بوضع يسمح لي مشاركة أصحابي البحّارة هوس

التهيؤ إلى الإبحار.

طلبت منهم تركي وشأني، فعلوا.

شعرت بالوحدة المقيتة التي بدأت تقتلني، صعدتُ إلى سطح السفينة أتأمل المشهد الذي بدا وكأنه المخبأ المظلم الوحيد مودعًا.

راقبت الأفق البعيد، ثمَّة مخلوقة؟

(ريتا؟)..

لا.

لكن، ها هي هناك تلّوح لي دون أن تهتم للمطر الذي شتت بازدياد هطوله ضياء مصباح كان هو الآخر ملوحًا لي من يدها الأخرى يخبو تارة وأخرى يتوهج، شيء مني بدلاً من أن يتبعني تنحى وعاد إلى السماوات، إلى اللقاء القصي، الوداع المر، السكون، الهياج، إلى النظرة الأخيرة التي أصوّبها إلى نفسي وحتى الأمطار.

ابتعدتْ السفينة عن (دوماي) بإبحارها المُر عبر مضيق (روبات).

كلّ شيء تكوّر، الميناء نقطة سوداء صغيرة، شعرت أن الرحلة قد بدأت، رفعتُ صلواتي إلى السماء، أريد العودة إلى (ريتا)، الريح التي كانت تعوي فوق الجبال حطّت عند صدري، تثير السكون.

أيقنتُ أن الابتسامة والبكاء إحساس واحد، انعطفتْ

السفينة صوب بحر (جاوه)، تجاوزنا العلامات البحرية، منطلقين بسرعة عالية تَحفُنا تسابيح الساحل المتوحد.

هناك ريح عبثت في الموج، تسلقت سفحه حتى قمته ضاحكة، انشقّتْ ضوضاء صمتي بضحكاتها، بلعت أنهار الموجة الآتية وجه سفينتي التي كانت مثل الخائن الهارب تجتاز خليج (ملكا)...

تلاشى كلّ شيء، إلّا شعلة النار التي استعرت بصدري بسبب آخر مسج وصل إلى جوالي من (ريتا) تقول فيه: «عزيزي سي لم أكذب عليك بوفاة زوجي، اختلقت عذر بقائه حيًا خوفًا عليك من اندفاع الشباب فيك. أنا ما زلت على كلمتي الصادقة معك أرملة، بوذية كما تعرف وأنت شاب صغير، مسلم.

عزيزي تقبل كذبتي لأني أحبك».

خلال جزء من الثانية انطفأت النار التي كانت تستعر في صدري.

ريتا تحبني!

تخاف عليَّ لا مني.

يا إلهي! ما هذا؟ أ مُقدَّر إليَّ أن تكون الحياة تعاكس أفراحي؟

أَمْ هي كما قيل عنها حين تنزل بالهمِّ لا تنزله فرادى؟

قدري... لا أدري ما قدري؟

ولا أدري أين سمعت أو قرأت (قلبي عطشان وأنا نهر). قلت عنها أنها كتبت لي؛ لأن اليأس العائد إلى صدري بقوة صار مشكلة بحدِّ ذاته يؤرّقني ويجعل مني منعزلاً أدور في دوامة أسئلة لا تنتهي.

طاف في ذهني بريقُ أمل، قرار بدا لي هو الحلّ، لكن أجّلت الشروع به لغاية وصولي إلى الأرض.

مسافات صمت

أبحرنا عند الساعة السادسة أو أكثر بقليل لا يهم، الأهم تركت ورائي على ساحل (دوماي) قلبًا دافئًا يتوق إلى رؤية وجهي.

النوارس قاسية بطيرانها مهمومة تحلِّق فوق توهّج مصابيح بعيدة، يغشّيها التعب المتوارث، البريد القادم الذي أمسى مثقل المسافات صامتًا.

«المحيط الهندي». يحمل سفينتي الخائنة بإبحارها المتسارع، يلقيها بكفٍّ كبيرة على بحر (جاوه).

الأفق الذي كان يرافقنا انشطر إلى نصفين، ذات اليمين شمس ترضع ظاهرة الحياة، وعند الشمال غلافٌ رمادي يهرس خط البرق المتوهج يغسل بأمطاره وجه البحر. علمتُ إنها إيماءات بوح في حياة يحصل فيها كلّ شيء. الصوت والصمت في نفسي يتخاصمان، الحزن والتوحّد يخالطهما السكون، الترقّب يثبتني في تكتم فاضح، أطيل المكوث على فراق حرج يفتق من أجله جراحًا تدوي في أعماقي العارية صرخة خرساء تضغط الأشياء للتصبّر.

على الرغم من الإثباتات التي غرزت منذ زمان في صحراء جسمي وبمسافات متقاربة على أمل الرجوع وراء سؤال:

«هل خسرت ريتا؟».

من المستحيل الجواب على هذا السؤال الآن، ف (خالق الخير الذي يوزع عطاياه على الناس لا يمكن أن يكون قد نسيني).

الغيوم ذات الشمال التقطت أمطارها سخونة جمسي، قذفتها مثل حجارة في بطن إحدى الموجات المنتصبة.

عند اليمين كسرت قصبة بيضاء حرارة الشمس ونثرتها مثل بذور فوق الأفعال البحرية، الحبّ واحد، البحر الذي يأخذ من الكلّ ويعطي واحد، فوق شفاه الأمس تركتُ بقايا مني بلا عسس.

اليوم لم يترك لي السفر طلب العودة، البحر في عناده شجون، شَحنتهُ العواطف التي تسوق العقل، والعقل هناك..

مكوثي طال..

أكتب أسراري وألقيها بكفٍّ موشحة بالبياض، أرمي قُبُلات شفاه مُتيبِّسات مثل رجم الأحجار حين تشقّ النسائم في أصواتِها توسلات، مثل تمتمات دعاء العودة تحت ظلِّ ابتسامة من وجهٍ أسمر، أنفاس سمر وهمسات بوح يتفتّح لها باطن الموج، يظهر لي وجه (ريتا) الباسم بعين ويبكي في أخرى..

فوق صدر الموج الذي كنا نسير فيه غربًا إلى ميناء آخر لم تهدأ المحركات أبدًا، كانت تزأر بضجيجها المتتالي في

رأسي، يدفع السفينة بسرعة أعلى نحو الأبعد، مترنحة كأنها مخمورة، ترقص مستمتعة بالموج الضارب قلبي، تشعل بتموِّجها العالي شهوة الوصل في نفسي التي لم تكتمل، دخلت بلا أمري في حالة من الصحو والتيهان.

بدا رحيق الحبِّ مُرًّا على شفتي التي كانت في اشتياق للأرض والشجر ولوجهها الضاحك عند وجهي من (ريتا) الاسم الذي طالما بحثت عنه في قواميس الأسماء، تلك التي علّمتني كيف أضحك وأنا أتسلق التَلّة مثل الأطفال أكركر، أرسم القمر الأبيض والنجوم على الساحل، أو حين أكون جالساً في الكازينو منتصبًا أمام أعين الناظرين في حضورها معي...

علمني حضورها كيف أقول وأكتب ما أقول...

على قهر أطبقت الجراح على الجراح، أرتق الفراق منشغلاً بعملي الذي طال أكثر من يومين في إبحار مُرّ عند أعمق محيط ننشغل في القادم حتى وصلنا جنوب شرقي آسيا عند الطرف الجنوبي من جزيرة (الملايو)، ميناء سنغافورة في (سنغابور).

لم تكن لي الرغبة في ملامسة الأرض..

لزمت مكاني...

بقيت والملل الذي كان يلازمني طوال بقائي على ظهر السفينة لم يكن بتلك القوة كي يمسح آثار وجه (ريتا) من

رأسي: «ترى ما تقوله عني؟».

قد أكون في رأيها بحّارًا كاذبًا قد مَرَّ وغاب ليلتقي بأخرى في ميناء آخر.

الأفكار تلاحقني في كلّ مكان، أشعر بالتوتر، أخاف على نفسي من الاستمتاع، أخشى فعلاً أن أكون قد وقعت في الحبّ!

ما الذي يحدث لي؟!

أنا في (سنغافورة) ولا رغبة لي في ملامسة الأرض!

وإذا في التفكير طفقتُ مستعرضًا حياتي الماضية، بدا منها لا شيء لدي أخسره غير يوم نسيته، منذ أمدٍ بعيد عاودني فجأة ذكرى ظهيرة يوم بارد من أيّام الشتاء، كنتُ فيه مرميًا على صدر عمتي التي علمتني كيف أواجه الحياة، يستهلكني الرعب من الشعور بالإهانة؛ لأنني سمحت للحادثة أن تمرَّ في طبقات النسيان، مرة أخرى تبين فراقها رحيمًا ويمكن الاعتماد عليه.

لقد فهمتُ أنّ الحزن والقدر قد هبطا من أعلى وصبّا نزولاً على رأسي كي أنضج بهذه الحياة.

بعد يومين من الملل والضجر، كنت نحتًا من الطين أجوف، ينخره الهواء من الداخل، لا شيء يدور من حوله فيه معنى، ليس له أنف يشم، نادرًا ما يسمع من الأفواه حرجًا، كاتماً سره يحاول الحفاظ على العهود، يشكو بصمت انكساراته إلى

زغب الأرض وملائكة السماء، قليلاً ما يتحرك فوق سطح زلق يتلمس بحذر حائطًا أملس، يتأمل نفسه كئيبًا مهلهّل الملابس كثَّ الشعر، أردّد الصدى الذي جال في صدري: «هل خسرت ريتا؟».

مرة أخرى تعبت من لهاث هذا السؤال الذي بات عصيًا على قلبي أن يأتي بجواب، انتهيت مثل الهابطين من عروشهم باستسلام، لزمن طويل لم أُلاحظ طعم الغربة في عقلي حتى طرأ لي ذلك التغير الذي أتى فجأة! إذ لم يكن بالإمكان تحقيق أحلامي، لكن كان بالإمكان العيش في الساعة التي بيدي كما تقول عمتي.

حينها فقط أعطتني السماء قطرات ماء صيّرتني طينًا يتحرّك لينفض من حوله التراب، متخيلاً نفسي أدور في فلك المعنى أرفرف إلى جسدي بجناحين مثل الطير، لكن لا أطير.

دفعني الحماس للقيام بالخطوة الأولى.

قرّرتُ النزولَ من السفينة والطواف في شوارع المدينة، كنت سعيدًا في سنغافورة، إذ لا يعرفني فيها أحد، مدينة من المدن شديدة الحرص على النظافة والهدوء، ينتصب على أرصفتها الجمال، تعجّ شوارعها بالمحال المتخمة بالبضائع المنوعة، تنتشر هنا وهناك المقاعد، يجلس عليها أناس ضاحكون مستعدون دومًا وبشكلّ خرافي رسم البهجة في القلوب.

جذبتني ألوانُ بناياتها العالية، شدّتني مندهشًا نضارة عماراتها وبهرجها النقي حتى أنستني كآبتي، رجعت على الفور إلى السفينة، حَلقتُ لحيتي وأبدلتُ ملابسي ثمَّ عقدت العزم على التصرف كشابٍّ مهنته البحر لا عاشقٍ متقوقع على نفسه وبالتالي يجب الاستمتاع بكلّ لحظة من اللحظات التي لا تعود إلى الحياة مرة أخرى أبدًا.

ما كانت سنغافورة من المدن العادية، كانت جزيرة سعيدة مرحة لا يضيق الصدر فيها، عجيبة الجمال، تُنافس بزينتها الدنيا، بهية الطلّة تنعم بالخيرات والسلام، وسطها الأشجار محمّلة بالثمَّار لا تمنع عن طالب، تهتزّ أغصانها لينًا، فيها من الدهشة ما يجعلك متخشِّبًا بمكانك، تلتفت ذات اليمين، ذات الشمال، ليس من الضروري أن تشاهد رجال الشرطة تقف بوجوهها غضب تراقب الناس عند كلّ تقاطع أو زقاق، لكن أحذر فالكاميرات في كلّ مكان.

كلّ شيءٍ فيها سهل بمتناول اليد، عدا هذا يجد السائح فيها ارتفاع أسعار السجائر التي تصل إلى اثني عشر دولارًا للعلبة الواحدة.

سنغافورة مدينة البساتين، شديدة النظام يحظر التدخين في الأماكن العامة وأن كنت مضطرًا عليك الوقوف داخل منطقة خطّت حدودها باللون الأصفر وتدخن، إياك أن ترمي النفايات في أيّ طريق وإلّا ستدفع الثمَّن، يجد السائح كلّ ما يبحث عنه أمامه متوفرًا وبأسعار مناسبة.

أمّا الباحث عن التجوال المرن والذي من شأنه إدخال الرغبة في البدن، عليه المرور بمنتجع (سنتوسا) أو (نيروانا) أو (مارينا باي ساندرز) أو جزيرة (بنتان)، شاطئ يشبه الفردوس على بعد أمتار معدودة عند الصباح تتجمّع الناس على رمله الناعم الذهبي كالبلّور، مع مغيب الشمس تنطلق الحياة الجديدة القادمة من عالم آخر، ومن يعشق صرف المال عليه المرور بمركز (بيبلز بارك) للتسوق ليجد هناك كلّ ما يطلبه

سنغافورة دولة نشطة الحركة تعمل تحت نظام صارم يجعل الحياة فيها تسير بشكلّ صحيح.

أحيانًا أجد نفسي واقفًا أمام ماكينة الصرف الإلكترونية لبطاقة المترو وأنا ممتنّ لهذه الفكرة العجيبة التي من شأنها التقليل من الازدحام في انسيابية وصول البطاقة لكلّ طالب، من كثرة ما تجدها في كلّ زاوية من زوايا المحطة وحين تسحب واحدة بقيمة الدولارين السنغافوري أو ثلاثة أو أكثر حسب مقدار قيمة النقل إلى محطة أخرى، ما عليك إلّا أن تعيدها إلى الماكينة الموجودة في محطة الوصول فتستعيد منها دولارًا معه عبارة شكر وامتنان مكتوبتين على الشاشة.

هذا النظام لم أجده في مكان آخر من المدن التي زرتها، أتصوّر لن أجده في المدن القادمة.

مدنٌ قد أجد فيها الأرقام والألوان والعبارات التي أراها بكثرة في الشوارع والمحطات، مثل علامات دلالة للسائح،

لكن لن أجد ما يعيد الجزء المتبقي من مبلغ بطاقة العبور عند كلّ ماكينة من ماكينات محطات المترو الذي كان ينقلني بسهولة ويسر من منطقة إلى أخرى.

(جاينا تاون)، (مصطفى سنتر)، وكثير من هذه المناطق ترى فيها التنافس على أشدِّه في الجمال والإبداع عند الفنّ المعماري والالتزام بالنظام.

الباصات الملونة تدور من الصباح إلى منتصف الليل تقريبًا، تصل مناطق وقوفها بالوقت المحدّد المعلوم على اللوحة الضوئية التي علّقت فوق مقاعد الانتظار، بالضبط تغادر منه في الوقت نفسه.

لأسباب اختلفت فيها أوقات نزولي من السفينة، أتيحت لي مشاهد قلّما لاحظها زملائي، مثلاً: تلك التي كنت استمتع بالنظر إليها صباحًا حيث أرى جمهرة من كبار السن رجالاً ونساءً بملابسهم الملونة يقفون على بساط أخضر رباني يمارسون الرياضة الخفيفة، على وجوهم تعلو ابتسامة عريضة يُوزّعونها بالمجّان..

زرقة السماء الصافية تلقي بالهمِّ بعيدًا عند وضوح الرؤية لحظة مشاهدة الطيور المختلفة في الألوان والأشكال، تهبط من رؤوس الأشجار، تختلط مع الناس بأمان عجيب غريب عند الحدائق العامة، تأكل ما تلقيه أيديهم إليها من طعام لا تخاف منهم ولا يخافون منها.

هناك عند امتدادات الأنهار العذبة تشاهد وزّات بيضاء

بمناقير حُمْر تملأ الأجواء بصياحها، تمرّ خاطفة بين سيقان الأطفال اللاعبة على الضفاف، حتى الفراشات التي تحلّق في الهواء تراها في متناول الأيادي ولا أحد يمسها بضرر، حالها حال الأزهار التي كانت مدّ العين تشاهد وكأنها بساطٌ قد مُدَّ فوق الأرض، تملأ المكان عطرًا فوّاحًا يلقي بالحُلم أرضًا تحت سماء رؤوف رحيمة تنزل أمطارها بشكلّ مستمر في وقت كاد يكون معلومًا لكلّ قاطني تلك الأرض.

أغلب الأوقات هطول المطر عند الساعة الرابعة عصرًا والسادسة مساءً، أمّا في الصباح عند الثانية إلى الرابعة وهذا الوقت إنْ تغير فبنسب مختلفة..

كنت محلّقًا في أثير المدينة المتجددة، ينتابني الهدوء الصاعد، رويدًا رويدًا يأخذني النظر المتخبّط ذات اليمين وذات الشمال مثل قرص الشمس الذي بهت هناك وراء الأُفق، لكن مازالت بقايا أنواره تمتدّ لتلامس قمم الجبال علّها تعود.

سرت ببطء أصغي إلى لحن الأنهار، سقسقة العصافير، ضحكات الأطفال، رنين الغرائز في رأسي.

وقفتُ منبهرًا أمام (إسيلاند) مركز الفنون والتراث من أعلى درجات الفنون المسرحية الذي تمَّ افتتاحه بحفل مُبهِر قبل أعوام قليلة.

عرّجتُ على حديقة الطيور (جورونغ)، رأيت طائر الكركي يرقص سعيداً يلتقط طعامه من السمك الذي فاض به النهر

المتلألئ تحته، تأملتُ طويلاً تمثال (توماس ستامفورد) ذلك الإنسان الذي أوّل من وضع خطواته في (سنغابور)، ألقي بأسئلتي على جسدي الذي مسَّهُ انكسار الوقت ورعشة لا تملّ مذاق الاستمتاع، أتابع بعينيَّ دنيا تدور بمخيّلتي، اقطع المسافات الطويلة، ألوذ بصمتي ولا أنصت إلى لغو رفيق سيري العذب رئيس الضباط.

لم تكن لي الرغبة في استئجار سيارة أجرة، على الرغم من وجودها أمامي مثل سرب من النقط الصفراء لامعة في وقوفها خلف بعضها بشكلّ مثير ومبهج على البلاط الحجري الملون عند موقفهنَ المخصصِ لهنَّ ينتظرنَ الزبائنَ.

لم يخطر ببالي أبدًا أنْ أكون مبعدًا، رذاذ حُلم أو قارب جرّته الأيّام إلى الرصيف وحيدًا تناكده الأمواج، اسوق قدميَّ عبر شوارع ذاكرتي التي صارت مشرعة الأبواب تمدّ النظر صوب (دوماي) تسمع من الزغاريد الشاردة اشتياقي...

أأنا الهارب من كأسي أمام الناس مترنحًا؟

أَمْ سارق الأمطار من الغيوم والبحار؟

الحياة تخطر ببالي ومضة، أعزف الدمع مثل رجل متعب نام في حضن أرنب، عابر الزقاق أرتجل الأيّام، أتأبّط الأحلام، سحابة نعاس اعزف كمنجات دمي، أحمل خطواتي فوق كيس حجر على كتف حمّال أرحل...

رمتني الساعات حتى صارت الأيّام في وحدتي كفوفًا

تدفعني إلى الهذيان والهذر: «أحبّها».

في وقت مشمس من يوم عذب البرودة لذيذ، كنت وصديقي رئيس الضباط نتسابق في شوارع البهجة، شعرنا بحاجتنا إلى شراب قوي يبعد عنا يأْس الوصول من مقارنات بين ما نراه في طريقنا وما نعرفه من رداءة حال في شوارع مدننا.

دخلنا أوّل مقهى كانت أمامنا، جلسنا قرب الساقي، متأبطين أحزاننا طلبنا شرابًا من النوع الفاخر، انتهينا مثل ما ينتهي كلّ مخمور ثمَّل ندفع بمشاعر الحنين والعجز إلى القادم من الأيّام، أملاً منا في معانقة لقاء ضحكاتنا عند الإحساس بالثقة في النفس التي صارت هائلة تحجب النظر، نلقي بتحفّظنا جانبًا، نستقبل من العالم كلّ ما هو جديد، نتلذّذ بدبيب الشراب الناعم والحديث الجميل لوقت طويل.

انتبهتُ أنّي كنت وحدي أُكلّم نفسي؛ زميلي اختفى ولا أعرف أين؟

لقد لعبت الخمرة لعبتها في رأسي..

لم أشعر برحيله؟!

ألتفتُ إلى من حولي افتّش عنه؟

لم أجده!

انتظرته وانتظرت حتى يئست من عودته، حاولتُ النهوض أروم المغادرة أعيلُ بنفسي متثاقلاً؛ وإذا ببعض لمسات تمرّ

على كتفي من فتاة كانت قمحيّة البشرة مطواعًا لِينة تحمل في وجهها الناعم ابتسامة تَطلّ من عينيها السوداوين نظرةٌ شعرتُ فيها برغبة جامحة أجبرتني في زحمة الملذات على الإصغاء رغمًا عنّي.

رمتني بمكاني متسمرًّا أنظر بدهشة الراغب من أعوام داخل مقطوعة عزف بطيئة.

حاولت لمس شعرها، مكّنتني، مددت يدي إلى خدّها، صعّرته، لاعبتُ بأطراف أصابعي شفتيها، ضحكت.

آهٌ، من رنّات ضحكاتها التي رمتني في تيه ما بعدهُ تيه!

مخمورًا حتى النخاع أردد: «آه».

يبدو أنها عرفت بثمالتي، همستْ في أذني تطلب مني الاتكاء عليها..

بمكر واحتيال -أو هذا ما كنت اعتقد -سايرتُ رغبتها، التصق جسدي بجسدها، شممت الورد من رائحتها، شعرت بنعومة وطراوة ملمسها الناعم، أتابعُ خطواتي خلف مكورات جسمها اللدن المتموج بثوبها الضيق، منصاعًا لها تصحبني الرغبة مترنحًا دخلت في سيارة لا أتذكر لونها لكنها ضيقة.

جلستْ إلى يساري تُوسِّع لي بصدرها تريد حضني، غفوت بلذة دفئها أكرر عليها تحيتي بأحسن ما عندي، كانت تردّ من بعدي ضاحكة؟ وهذا ما كنت أظن؟

هو مجرد تخمين!

مددتُ يدي، لمستُ كلّ شيء بسهولة ويسر، قبّلتُ الكثير من مناطق جسدها الشهي، دون ممانعة منها، رقصتُ بمكاني وغنّيت حتى سمعتها تغني معي لوقت لا أعرف كم بالتحديد، توقف عن الغناء لحظة توقف السيارة، ترجّلنا في ثقل، رأيت السائق يتنفس بأنف «أرستقراطي»، وهذا أيضاً كان مجرد تخمين!

جرّتني من يدي خطوات، تجاوزت بي مستطيل الباب الحديدي لعمارة كانت عالية، على ما أظن تقدّمنا خطوات أخرى صعدنا عشرة سلالم أو عشرين؟

لا أتذكر بالضبط، لكنّ الذي أتذكره جيدًا أننا دُرْنا في مساحة ضيقة، وصعدنا سلالم أخرى حيث توقفنا أمام باب خشبي لونه بُنّي غامق بعد بعض درجات، دسّت يدها في حقيبتها الحمراء، أخرجتْ من داخلها مجموعة مفاتيح فتحت بواحد.

دخلتْ أمامي وأنا تابع لها مترنّحًا...

كانت شقة واسعة تبدو من طلائها الأبيض نظيفة، ومن زخرف أثاثها مترفة يزينها اللون الذهبي البراق..

سرنا في ممرّ ضيّق حتى وصلنا الصالة...

رأيت فتىً سمينًا في عمر الرابعة عشرة، يمسك بيده كعكة كبيرة وبالأخرى موجّه التلفاز يقلّب بالقنوات ولا يستقرّ على واحدة، صاحتْ به تطلب منه الابتعاد، كالفيل نهض متثاقلاً

مطيعًا، ابتعد حتى اختفى كما يختفي الأصحاب لحظة حاجتهم.

توجّهت الفتاة بشفتيها إليَّ بغتةً تحاول تقبيلي من فمي، لولا حركة مني كانت خاطفة حيث أشحت بوجهي عنها لحقّقتْ ما كانت تريد..

خلعتْ معطفها ضاحكة وقدّمتْ لي كأسًا وقنينة شراب ثمَّ مضت.

بعد دقائق عادت بهيئة مغرية!

تلبس لباس نوم أسود شفافًا وقصيرًا من الأسفل يضيق على وسطها المهتزّ، يكشف طراوته، وكلّما تقدّمت نحوي تمايلت بغنج باسمة، شممتُ فيها رائحة غريبة، وعند جلوسها قربي أحسست بحرارة يدها ثلوجًا تهبط على قمّة صدري، شعور الرغبة الجامحة يزداد، الصمت يرتفع، توهجت، تأججت، مدّت يدها إلى شعري تلاعبه بأناملها.

لبستني رعشة غريبة سارت كالبرق تحت جلدي حتى بدأتُ أسخن من الداخل، في الحال تعرّق جبيني، تحرّكتُ محاولاً الخلاص من محنتي، لكن قامتْ هي بحركة خاطفة منحنية بجسدها الغض لي، سحبت بيدها التي مدّتها نحو الطاولة منديلاً، مسحت وجهي بلطف، ثمَّ عادت تمد بشفتيها الحمراوين مرة أخرى تريد القُبَل...

بدا لي كلّ شيء يقترب مني: مظهر الأنف المرتجف

والأطراف الملونة والعيون السود وجمال الخدود والشفاه الحمر والشجر والسماء والمطر والبحر والنوارس والرمال والأرض وحتى الورد بطيبه العنبر والهواء بنسيمه البارد.

قفزتُ من مقعدي، أريد الابتعاد عنها ولا أريد، تذكرت (ريتا)، شَدّتْ ساعدي بقبضة يدها جذبتني إلى تكوّر صدرها فانكشف لي، شعرتُ بالهيجان، بالنار تلسعني، بالدوار والغثيان، دارت الصالة كلّها من حولي: المكتب والدولاب والمصباح والمكتبة والكنبة واللوحة المعلّقة بالجدار والستائر والتلفاز والمروحة والزجاجيات والأكواب والحيطان والطوب الأحمر والنوافذ والباب والرخام وكلّ شيء كان حولي يتحرك بدوران مهلك.

شعرتُ بالضيق، حاولتُ التنفس، صعد بصري إلى السقف، تنهّدتُ بصوت كالاستنجاد..

نظرتْ إليَّ نظرة سريعة ساذجة، انتفضت تروح وتجيء من أمامي غاضبة صاحت بي مستهجنة: «ما بك؟!»، ثمَّ اختفت ولأكثر من دقائق عادت معها زميلي وفتاة أخرى، ازددتُ حيرة من ظهوره هكذا أمامي فجأة، لم يترك لي وقتًا لأسأله كيف وصل إلى هنا، سبقني بالصياح متسائلاً:

- ما بك؟

لم أفهم ما يعنيه حتى أضاف:

- الفتاة تريد التخفيف عنك، وأنت ترفض!

..... أهو عيب فيك أَمْ فيها؟

لم أتحامل عليه، فقط توسّلتُ إليه أن يشرح لي متى وصل إلى هنا؟

صاح بوجهي كالدبّ شارحًا لي بدم بارد طريقة طلبه من صديقته التي كانت واقفة إلى جانبه أن تأتي بفتاة جميلة تصحبني معها؛ لا لشيء فقط كي تخفّف عني الحزن الذي رافقني منذ وداع (دوماي)، ثمَّ قال بنبرة اهدأ:

- كان فراقك عن (ريتا)...

زاد:

- أنت الآن تفسد بجنونك ليلتَنا.

قلت مستغربًا:

- متى كان الحبّ يفسد الليل؟

- لا تتفلسف، تصرّف مثل الذكور، الفتاة وقعت في حبك؟

تأمّلته طويلاً غير مهتم بنظراته المفترسة أتبع لهاث سؤالي:

- أتسمي هذا الذي نفعله حبًّا؟

ردَّ مستهزئًا وفتاته في حضنه:

- وما تسميه أنت؟

لذتُ بالصمت متوجّهًا إلى الباب أسير بخطوات سريعة..

خرجت إلى الشارع، تنفّست الهواء النقيّ الذي ملأ صدري،

عادت الحياة إلى قلبي، في سير هادئ على الرصيف كنت مستمتعًا بالنظر إلى وجوه الناس الناعمة من ثراء الطبيعة ورفاهيتها، شعرت بالنعاس والتعب، استأجرت سيارة أجرة وعدت إلى السفينة..

منهكًا ألقيت بجسدي على السرير، ألعن هذه الليلة بلغتي المهزومة، أنتظر شيئًا أباهي به حزني الذي غلبني لعدم معرفتي متى انقشاع الأشجان عن صدري حين يشمّ أرض (ريتا) ذات الوجه المفعم المكتمل بالنمو وطازج.

لا أعرف أيضا لِمَ الزفير المخنوق في الخارج تدفّق في داخلي وتوَّجني بتاج المهزومين يبيح للدمع أن يسيل من عيني حتى غفوت...

في الصباح رأيتُ البوصلة لا تقبل عقاربها أن تؤشر غير اتجاه واحد...

وحاجتي إلى طعام الإفطار كبيرة.

كلّ ممرات السفينة كانت تعجّ بالصياح صاخبة تفوح منها رائحة المتعة من ليلة البارحة، تشاهد على وجوه البحّارة وطن الاستمتاع والسهاد عشّش في ملامح السهر.

وأنا أمسح الذكرى التي لا تزول في الموج الصاخب والريح العاصفة تحتها الشجيرات الأليفة تنحني كالأحلام المترعة بالوداع ترتجل المسافات بسمفونية رقصت لأجلها لحظات الزمن المستحيل غنّيت حتى استراح البكاء.

كان المذياع المعلق عند غرفة المطبخ يصدح من خلاله صوت الأغاني التي تأتي برتابة منضبطة تحرّكني للرقص فوق العطر والعطش المستديم للعودة إلى (ريتا).

- أيها البَحّار (سي)، ضعت البارحة.

صوت زميلي الذي كان معي يخاطبني بلهجة الاستهزاء...

ولولا الصحبة القديمة لقلت كلامًا أبكاه، لكنني قلت:

- لقد تركتُ قلبي يصهل من خلفي على ساحلٍ في إندونيسيا، وأنت تعلم.

نظر إليَّ شزرًا، هزّيده مستهجنًا، قال:

- بعد نصف ساعة نباشر عملنا.

- اعملوا ما تجدونه صالحًا للإبحار ودعوني وشأني ...

صحيح، تذكرت، لم يخبرني صديقي متى الإبحار؟ الحمولة ملأت المخازن وأصبحت السفينة جاهزة للمغادرة؛ كي تفرغها في ميناء آخر.

لذا عدتُ وسألته، فأجاب:

- اليوم، عند السادسة مساءً.

- إلى أين هذه المرة؟

- سنعرف بعد الإبحار...

أكثر ما يتمناه قلبي الآن هو محو ألَم الساعات التي بدت بلا نهاية في غياب (ريتا)، كنت محتاجًا لها مرخي الأوصال

أسير مقتنعًا: «الموج غير حميد للحب، البحر يؤكد ذلك، الحب أشدّ قوة من قلوب الرجال والموج نفسه يؤكد ذلك».

الريحُ اللعينة لا تقبل دفع الأحزان بعيدًا عني، الموج الذي أمامي بدا عتيدًا قاسيًا مثل الجدران الصخرية وأقسى.

كلّ شيء كان معاندًا لي، ملتزمًا بالثبات لا مسافة خلاص ولا عودة.

ضجيجُ البحر المتراكم ببدن السفينة عراك وحشي ومخالب طويلة تنخر في الرأس تغور عميقًا.

اليوم هو اليوم بثقل كلّ الزمن القادم اليوم كالأمس وهكذا الأيام تتشابه.

مرّ على الإبحار عشر ساعات أو أقل بقليل ولا نعرف إلى أين؟

تناولتُ لذتي في الصمت عند الانزواء، عبثًا جلستُ في غرفتي أتهاوى مع وحدتي..

أتمنى لو نسيت اليوم، والغد يأتي بخبر سارّ.

الساعة تشير عقاربها إلى التاسعة مساء بتوقيت البحر جاءني بعض البحّارة ومعهم حِكمة قديمة والنبيذ الأحمر البارد حتى ينسوا بعض الآهات.

هذا شبهُ جنّ لرؤية صورة ابنتهِ التي كانت بيده يلوّح بها لنا باكيًا.

ذاك يغرقهُ الهمّ اشتياقًا إلى زوجته، ومن يترقّب حبًّا عابرًا يلقاه في حضن دافئ عند ميناء آخر، وأنا أحدِّق فيهم بلا معنى، ألوذ بضجيج دفوف وألحان تصدح من مذياع الغرفة يتبعهما صوت عذب له القدرة على خروج الحسرات والرومانس المذاب من الصدر، أنصت وأحفظ قصص الوله من رؤوس أصحابي الثملين.

كانت الكلّمة تخرج منهم متكسّرة.

أحدهم بجوار الآخر مثل مرآة تعكس وجه الحبّ والحرمان..

لحظات بوح طفرت منا..

إحدى الحكايات عن نزوات العشق من فم بحّار لامس الثمَّالة؛ ليقول الآخر مترنّحًا: «نعم، نعم العشق أفضل النعم!». آه، لو يعلم ما فعل بي الأفضل، من ذا ينال الحظّ الأفضل، كتاب الحبّ صفحاته طوال فيه الحزن أكثر واللقاء لم يكتب بعد..

هل الحبّ هو لعنة؟

أكذوبة نلوذ بها لحظة ضياع؟

رنّت لي فكرة الفم الذي قبّلني، كان حلمًا قد مضى، لكنه أسّرني إليه طول السفر، أمسيت ثمَّلاً كأصحابي حين نعست، طلبت منهم ورجوت كرمهم الابتعاد عني؛ «حتى أهنأ بالراحة وحدي»، هكذا أجبت أحدهم حين سألني سبب طلبي منهم مغادرة غرفتي، والحقيقة كنت أريد البكاء.

أفقت من نومي مذعورًا يحرّكني القلق من تأخّري، عقارب الساعة المعلقة أمامي، هدأت كثيرًا من روعي، ها هي تشير إلى السابعة وهذا يعني ما زالت لي ساعة، تسلّقتُ السُلّم صعودًا حتى صالة الطعام، تناولتُ وجبة الإفطار، صامتًا نزلتُ إلى قسم الماكينة وهناك شملتني الآلهة برحمتها؛ انشغلتُ بعملي حتى الساعة العاشرة موعد الراحة نتجمع فيها عند الصالون نشرب الشاي نصف ساعة فقط.

مكبّرات الصوت تزعق: «انتباه، انتباه، على كلّ طاقم السفينة التواجد في غرفة الاجتماعات».

ما الذي جَدَّ؟

هذا أمر غريب، وأنا جديد على البحر!

سألتُ أهل الخبرة فكان الجواب أغرب: «هناك شيء خطير، صعب. بسببه سيلقي علينا القبطان خطابه». يا إلهي! ما الأصعب والأخطر من أننا نسير ولا نعرف إلى أين؟

«طاقم السفينة الكرام تهيّأوا، وصلتنا الأخبار. البحر الذي أمامنا عالي الموج وعاصف، هذا ما أخبرتنا عنه الأنواء الجوية، أطلب منكم الحيطة والحذر، عدم التجوال على سطح السفينة، شدّو ا كلّ الأشياء المتحركة، سترافقنا العاصفة حتى وصولنا الميناء القادم سري لانكا».

انتهى القبطان من خطابه محذّرًا الجميع من الخطر القادم وقد كشف لنا عن وجهتنا.

اندفع البَحّارة إلى الحركة السريعة، وقع كعوب أحذيتهم على البلاط الخشبي يحدث دويًّا هائلاً، في أروقة السفينة كلّ ينشغل بعمله..

تحرّكوا بسرعة عالية ببدلات عمل برتقالية وأخرى صفراء يصعدون السلالم وصياحهم يتعالى، يُحمّس أحدهم الآخر. أما رجال الصيانة -ببدلاتهم الزرقاء- يتبعونني إلى الماكينة.

وأنا أنزّل السلالم دخلت غرفة المحركات...

كلّ توجه لمجال عمله.

كنت شديد الحرص على ترتيب معدات الصيانة في الورشة، اهتمّ كثيرًا بتعليق كلّ مفكٍّ بمكانه، وتسخين مولّد الطاقة الاحتياطي، أحاول تشغيله بأسرع وقت ممكن، استعدادًا لأي حالة طوارئ، في حال إطفاء أحد المولدين الآخرين تجهزت مولدات الطاقة.

دخلت وعامل اللحام غرفة (حاقنات) الوقود، جهّزنا بغضون دقائق اثنين للاحتياط، خرجتُ ورجل اللحام خلفي يتبعني إلى غرفة المولدات، تأكدتُ من عملها مثل ما نريد، عدت إلى غرفة القيادة الإلكترونية أطلعت رئيس المهندسين على ما أنجزنا..

شكرني طالبًا مني -والعرق يتفصّد بجبينه- التأكّدَ من حرارة الزيوت وفحص حرارة مياه التبريد الداخلة إلى الماكينات؛ السرعة تزيد ويجب زيادة كمية الوقود المحترقة

وكمية المياه الداخلة للتبريد.

عدت إلى مضخّات سحب المياه المالحة والحلوة معًا، عدلت من سعة المياه المندفعة مع الحفاظ على الضغط المسلّط على مراوح الدفع، تحاورت مع طاقم الماكينة وأنا أشدُّ على أيديهم لوقت قصير قدّمت لهم ما أستطيع، عدت إلى غرفة القيادة الالكترونية أبلغت فيها رئيس المهندسين بما فعلت وأنا استجمع أنفاسي، شكرني مرة أخرى وطلب مني البقاء إلى جواره ثمَّ سألني سؤالاً دفع الخوف إلى عقلي وكاد أن يلامس قلبي حين قال بغتة:

- هل مررت بعاصفة بحرية من قبل؟

- لا.

ضحك ملءَ فمه وقال:

- إذن ستقذف أمعاءك.

في الخارج، بدأ البحر يزأر بنا، يمدّ بموجه المتقلّب حولنا، يضرب ببدن السفينة من كلّ حدب وصوب تحرّكه ريح المحيط الغاضب مثل عملاق خرافي يرفعها إلى الأعلى على أكتاف موجة تبعدنا عن السطح إلى السماء ثمَّ تهوي بنا في وادٍ عميق واسع تنتصب ضفتاه تصطفق مع بعضها البعض تحدث دويًّا هائلاً ورذاذًا بقوة الحجر يضرب النوافذ وصدور البحّارة التي بدأت تهتزّ خوفًا ورهبة.

شعرت بارتجاج السفينة يحرّك همهمات سؤال في

صدري الخائف: « كيف نجتاز المحيط هكذا؟»، لكن لم ولن أبوح به لأحد حتى سمعت صوت مفاصل السفينة بدأت تحدث أزيزًا حادًّا!

خفت..

اتصلت بصديقي رئيس الضباط أستفهمُ منه الحال؟

فاجأني ردّه المرعب وهو يصيح بصوت عالٍ: «لقد دخلنا دائرة العاصفة».

وانتهى يردد: «زيدوا من السرعة.. السرعة. السرعة».

اعدت الحاكية إلى مكانها وتوجهت مسرعًا إلى رئيس المهندسين، أخبرته بما سمعته من رئيس الضباط، أجابني ببرود: «ليس هكذا تدار الأمور، اتركه وشأنه، هو خائف».

كان الفضاء أزرق واسعًا مدّ العين عملاقًا يلتصق بالأفق البعيد يحرّك الهواجس بشكلّ رهيب يتشكلّ في كلّ لحظة وجه آخر.

في جسد الكون صياح يوقظ الأطياف يُحشّد العاطفة لمسافات أوهمت بنات هواها الفكر.

لا أثر لنا من نقطة انطلاق سفينتنا عند رأس خليج (ملكا باندا تشه) إلى نقطة وصولنا (سري لانكا)، والتي نحتاج فيها إلى أيّام ثلاثة تقريبًا، هذا إن سرنا بخط مستقيم ولم يحدث لنا طارئ يقلل من سرعتنا.

العاصفة بدأت تغيّر من حسابات وصولنا على الأقل في

الوقت الحاضر، إذ في كلّ لحظة وأخرى يأتي أمر جديد، هذا ما أكّدته اتصالاتنا المتكررة مع برج القيادة.

أنهيت مع رئيس الضباط كلامي وما حصل بعده من صمت لم يمهلنا الوقت أكثر من دقيقتين.

رنّ الهاتف مرة أخرى.

رفع رئيس المهندسين الحاكية وأول ما فعل انطلق ضاحكًا وهو يعيد الحاكية إلى مكانها ثمَّ التفت إليَّ وقال وعلى وجهه مازالت ترتسم بقايا ضحكات: «سنزيد السرعة الآن».

خرجت مهرولاً صوب منظومة الحرارة ومنظومة الزيت، عدّلت من المقاييس وعدتُ مسرعًا إلى مكاني، وقفت أنتظر التعليمات.

مثل تلميذ يحبّ التعلم بجد واضح دخلت غرفة القيادة الإلكترونية أترقّب القادم بتركيز عالٍ أنصتُ لصياح رئيس المهندسين.

يريد مني جرد كلّ شيء بأدقّ التفاصيل.

تحركت طائعًا أمره أحمل معي سجل الملاحظات، على الفور خرجت من غرفة القيادة الإلكترونية...

في أروقة الماكينة رأيت الطاقم في التزام يفرح النفس كلّ بمكانه منشغلاً في شغله، أخذت المعلومات منهم وتجوّلت أقارن ما دونته على وجه المقاييس وعدتُ إلى رئيس المهندسين، رأيته مازال بمكانه يحدّق وقوفًا في

اللوحة الإلكترونية، يتفحّص بحرص شديد كلّ شيء حتى قال دون أن يلاحظ قلقي: «الآن عملنا ما علينا والباقي على الله والقبطان وطاقمه».

شربنا القهوة أكثر من مرة، تجوّلت في أرجاء الماكينة مرات ومرات، الأمور تسير على أحسن ما يرام حتى حدث ما لم يحسب حسابه..

ميلان السفينة المتكرر حرّك الماء الراكد في خزانات الوقود وبالتالي بدأت المولدات تتلكأ بتوليد الطاقة وهذه بحدّ ذاتها كارثة؛ من المؤكَّد لو توقّفت الماكينات عن العمل نغرق بغضون دقائق، أو على الأقل هذا ما تخيّلته حين رأيت المصابيح تومض وبعض دخان أسود يخرج من فتحات العادم..

يبدو قد لامست الصواب بشيء واحد؟

ازداد الحِمْل على مولدات الطاقة بزيادة السرعة ويجب تقليل استهلاك الطاقة، في الحال هاتفتُ رئيس الطبّاخين بأمر من رئيس المهندسين طالبًا منه تخفيف الأحمال على مولدات الطاقة في إطفاء الأجهزة الكهربائية، بغضون دقائق عاد الحال إلى وضعه الطبيعي.

ما زال البحر الذي كان يتمادى بضربه السفينة يهزّها بوحشيّةٍ أكبر.

البحر أُحبّه، لكن لا يفهمني، جئت إليه لا من أجل أن

يخيفني، نعم تكفّل في إسعادي طوال خدمتي البحرية وهذا ما تأمّلته بقراري أن أكون بحّارًا لا موظفًا يعمل على اليابسة بدوام فيه الرتابة اليومية تضيق الصدر وتخنق الأنفاس.

وقفت بين سُلّم الصعود إلى السطح وسُلّم النزول صوب غرفة الماكينة..

تجمدتُ بمكاني مصغيًا إلى صفق الأبواب وأصوات ارتطام الأشياء ببعضها البعض!

تحرك النصف الثاني المخبوء في نفسي يدفعني إلى الصعود..

صعدت؟

طالعتُ البحر باستياء وضجر من نافذة الصالة.

اختفت الرغبة في حبّه، اكتسى وجهي صلابة جبل؛ البحر يمتزج لونه مع الظلام، يمتدّ نحوي كمصيدة كبيرة تتحرك نحوي، تترك وراء تحرّكاتها أنينًا يزداد حدة على وجوه عضّت شفتيها بمرارة.

كانت الأمواج عاتية تصيح في أعماق مسامعي، طبول معربدة تثأر من السفينة بقسوة برابرة، تلقي بزبدها الأبيض المتطاير كالحجارة على بدنها الأخضر الزاحف في ثقلٍ مثل رجل مقيّد بالسلاسل مثخن بالجراح، عدت إلى غرفة القيادة الإلكترونية وحين رآني رئيس المهندسين وبّخني بسبب غيابي.

تَلجْلجتُ بالكلام وأنفاسي لهاث تحججتُ بقضاء حاجة.

طلب مني بصوت أهدأ:

«خذ الحيطة والحذر»..

زاد:

«إننا الآن وسط العاصفة، بقي لنا ساعة أو أكثر لنتجاوزها».

ثم أكّد على شجاعتي وشدَّ من عزمي حين قال:

«بحار عتيد».

أفرحني وصفه الذي ناقض ما نعتني إياه قبل قليل، تحركتُ مثل بطل يخضع الناس إلى سلطانه، أقنعت نفسي أنه لابدّ من التعرّض للكراهية والغلّ من جانب الحاسدين، جمعت كلّ القياسات وتأكّدت من أرقامها بنفسي، قدمتها إلى رئيسي الذي قال: «أنت اليوم أثبتَّ لنا أنك بحّار حقيقيّ يستحقّ التقدير».

لا أعلم ما الذي كان يقصده، لكنّي عرفت أن الطاقم -إن لم يكن نصفه فثلثه على أقل تقدير -يلوذ في الغرف يعاني التقيؤ من دوار البحر وآخر يكوّره الصمت خائفًا من هول الموج وغضب البحر.

لم أنتبه لقلّة العدد؛ كنت منشغلاً بتنفيذ الأوامر والحركة المستمرة التي كانت تبعد عني التركيز بمن معي ومن لم يكن معي...

هنا في غمرة الأفراح التي لامست قلبي بعد ما فارقتها دهرًا كانت الحاجة إلى الهدوء تعادل كنوز الأرض.

البحر بعناده الذي تجاوز حدّه قد اشتدَّ علينا، يصعد بموجه إلى أعلى ارتفاع؛ ليهوي بها على بدن السفينة التي صار يسمع (طقطقات) مفاصلها.

نظرت نظرة أخيرة إلى عينَيّ رئيس المهندسين اللتين كانتا تحيطانني بفيض من الإعجاب والاعتراف بالجميل، على الفور خرجت إلى غرفة مولدات الطاقة أُعدِّل المقاييس الحرارية.

انشغلت لوقت لم أشعر بمروره حتى لمستني يد؟!

كان رئيسي يريد مني تشغيل منظومة التبريد بكلّ طاقتها، ففعلت...

في غضون دقائق عُدتُ إلى غرفة القيادة الإلكترونية وهناك جاء الخبر الذي أعاد الهدوء إلى القلوب ولو بشكلّ مؤقّت.

انتهت العاصفة وها نحن نسير في منطقة آمنة بعد ما صرّح قبطان السفينة بصوته الجهور من مكبرات الصوت قائلاً:

«عبرنا منطقة الخطر، وصلنا منطقة الأمان بسلام».

لحظة تأمُل

في ذلك السكون الذي طلَّ على حنيني أودعت رأسي خاشعًا للمدِّ السماوي، أنتظر مستلقيًا على ظهري حتى صرت والموجة العالية وصلاً لا عناقا، رأيت الأفق خيمة ساكنة صافية بلونها الأزرق تغطي فراشًا يتموّج في وجهها المتلألئ تحت جلدي الصحراوي الذي أفزعته قطرات ماء كانت مالحة.

الرهبة تلامسه أنامل الموج مرة أخرى تُقبّل في بدن السفينة، فاضتْ عيناي بمن هم يحبّونني ويشتاقون وجودي، سحبت الهواء بهدوء، حواسي انغمست في روحي الهاربة إلى ثوب صحرائها، بدأ المشوار المتناغم عند الجسد المبلَّل في لحظة لقاء كادت تلملم شتاتي عند خدود غربتها، ما زال البحر يأخذني مثل الغريق إلى الشواطئ، أغمض عينيّ حيث السحاب الأبيض يلهمني العجب!

افتحهما...

أراني مستلقيًا على ظهري فوق الرمل الناعم وهدوء المحيط يكشف دخولنا منطقة السلام، لكن لا رغبة لي في الحركة، أحدّق في قلب الطيور التي كانت كالمطر تردّد الغناء بتحليقها فوق أعلام السفينة، تتموّج راقصة في

الفضاء الذي أخذ يتشكلّ للصفاء، آمالي تسير أمامي، أتبعها منغمسًا بالصمت، ثمرة طازجة لينة يدغدغها الموج، أنجذب وأصطنع اللطف بانجذابي، أخاف وأرتجل الشجاعة، مندفعًا للصحو ولا أقدر.

لا يمكِّنني المحيط الهندي من نفسه؛ هادئ، غامض، لطيف كلّ ما فيه من هوس يجعلني أتمتم: «أيها المستحيل، عازف الناي أمام تمثالك المنتصب حين أبلغ شهوة اللقاء مرة أخرى إلى أجمل ميناء، عُد بنا صوب ريتا».

ثمَّ أهمس: «أهي حالة من الهذيان؟».

نعم، هي هكذا، إذ لم يبقَ على وصولنا (سري لانكا) سوى ساعات.

النهار بدأ يتلاشى، والقمر المتوهج بدأ بالظهور، وأنا العائد إلى زمان تركت فيه بعضي عند التيه؟ أَمْ (ريتا) جميلتي التي تشبه المساء في لون عينيها أملي المتوهّج الذي زاوج أحلامي ووسع قلبي؟

الهواء ريشة فنان يرسم على أوراق الربيع جمالاً منقطع النظير.

يا ترى هل تعرف بوصولي؟

لا يهم سأتصل بها حالَمَا تلامس أقدامي الأرض.

نعاس الليل المُعتَّق

أبحث عني في مرآتي التي تردّد فيها الصورة عكس امتدادات وجهي، وجدتُ في أكثر الخطوط شبابًا أستدير إلى هناك ولا أستطيع انتزاع (ريتا) من زحمة أفكاري، جملةٌ من الشِعر رائعة رافقتني أينما أروح، سفحًا يطفح بالأمنيات ليلاً على أجنحة الأسرار المتخمة بالجمال، ألوذ بالوحدة والصمت الطويل، أكلّم الأمواج المتدفقة فرحًا بعيشها المغرورة كما الأشجار المنحنية إلى المدى.

فوق الأفق سماء راضية تبصر القمر الأبيض كيف يطرّز بضيائه الفضي طرحة يغطي بها كؤوس الأزهار مثل عاشق قديم.

«ترى هل أعود؟».

لا جواب غير صياح الشعاع: «لِمَ تسير وحيدًا بين ضفاف الأشياء وأروقة السفينة؟».

ثمَّ شفاه الليل: «ما سرّ بقائك في الغرفة؟».

حتى البَحّارة على كثرة ما تجاهلت الردّ على أسئلتهم اتهموني بالغرور وقالوا عني كلامًا لو جمعت حروفه لبنيت سورًا يضاهي سور الصين.

لكن، عندما يأتي ظلام الليل تدرك السواقي أن العين لا تروي الشفاه العطشى.

ولا يفهم هذا الأمر إلّا من نظر إلى الأشياء بعينه لا بعين غيره.

في غفلة الألسنة قالوا عني إنّي نفرٌ كسولٌ لا يَقْدر على تحمل الإبحار، ضعيف القلب، عطوف السلوك، ليس مثل بقية الرجال، تمادوا في القول أكثر حين زعموا أنّي ناعم، ولا يستطيع مجابهة المتاعب وتحمّل الأسفار الطوال.

كلّ هذا لأنّي كنت ألوذ بوحدتي صامتًا عند زحمة احتفالاتهم المتتالية.....

فما كان بمقدوري أن أفعل؟

مع مَن أتحدث؟

لا أعرف إلّا الإحساس بالضياع.

لقد وصلت بنا السفينة ميناء (كولمبو) أكبر مدن (سري لانكا) المزدحم بالناس.

مدينة جميلة رسمها الخالق على ظهر الأرض؛ ليعزَّ بها أهلها المختلفين في الأديان والمعتقدات، متحابين يعملون كيدٍ واحدة، لا تشوب حياتهم شائبة الاختلاف الاثني أو الطائفي أو غيرهما، أناس رضوا بعيشهم ورَضيت بهم الدنيا ثمَّ وسعت لهم من صدرها، لينعموا باقتصاد باهر نتيجة موقعها الجغرافي المهم بوجودها شبه جزيرة يفصلها عن

القارة الهندية من الشمال امتداداً خليج (مانار)، ومن الجنوب المطلّ على المحيط الهندي المحفوف بالبحر العربي شمالاً تحيطها الغابات والجبال السوداء المنتصبة فوق أرض خصبة اشتهرت بإنتاج البن والشاي والمطّاط والملابس والأحجار الكريمة.

فكّرتُ وأنا أتجوّل في متاهات الطرق القديمة: «عليّ العودة الآن».

لقد عاد الأمل إلى قلبي حتى ملأه حين اتصلت ب (ريتا) وشرحتُ لها سهولة إمكانية العيش معًا كزوجين.

يبدو لي ما أريده معاندًا للقدر الغامض الذي باعد بيننا، إذ لم أفلح أبدًا في نسيانها، لقد كنت كمن يلبي نداءً خفيا.

رجعتُ إلى السفينة متخذًا قراري بالسفر إليها، لكنّي عدلت عن فكرتي هذه؛ لعلمي أن البيت الذي تسكنه ليس ملكاً لها.

قررت أن أبتاع بيتًا يجمعنا وابنها وأمها العجوز كهدية زواجنا.

رجعت من جديد كلمتها، قلت كلّ ما كان يجول في صدري براحة وصراحة واضحتين، كانت متفهّمة راضية على عكس أمي وعمتي اللتين عارضتا بشدة في بادئ الأمر، لكن لمعرفتي بحبّهما لي قلت كلامًا أبكاهما وأرقّ قلبيهما فوافقتا شرطَ زيارتهما كلّما سنحت الفرصة.

انتهيت طوافًا في الشوارع وحيدًا أُلملم شتات أفكاري.

رأيت مركز التجارة العالمية منتصبًا عاليًا مرتفعًا جدًا عن باقي البنايات، نظرتُ في دهشة لا قرار لها إلى رمز من رموز الفنّ المعماري، البنك الذي انتصف المدينة، مررت في الأسواق، تفحّصت محلاتها الممتلئة بكلّ ما يلفت الأنظار، لمستُ أكتاف الناس والشاي والتبغ والمطاط وجوز الهند والأحجار الكريمة والملابس، عرجت على الغابات التي كانت تعجّ بالطيور والفيلة والمعابد، تبلّلت برذاذ الشلالات...

تجولت في المدينة، دخلت شوارعها المزدحمة من أوسع أبوابها، تفاعلت مع الناس وشعرت أنني أترجل في مجتمع راقٍ، يردّدون التحية بترحيب حارّ لكلّ مارٍّ يرفعون أيديهم: «لك حياة مديدة».

كانوا شعبًا مسالمًا اجتماعيًا، لطيف المعشر، طيّبين، أغلبهم يعتنقون الديانة البوذية، يعيشون بسلام مع أقلية إسلامية ومسيحية وهندوسية، يتركون خجلاً على وجوه الغرباء الذين ينظرون إليهم بدهشة فلا يجدون في بلدانهم ما يجدونه هنا.

لقد انخدعت مرتين في سيري، نتيجة الأثر الواضح على بناء شوارعهم المنتظمة بنظام الاستعمار الهولندي ومن ثمَّ الإنجليزي.

لا أدري لمَ فتشت في كلّ صغيرة وكبيرة في حياتهم؟

نسيت نفسي بالتجوال لمدة يومين كلّما سنحت لي الفرصة طبعًا دون أن أعي الدّافع إلى ذلك.

في اليوم الثالث كنت أبحث عن مكان تتوفّر فيه الراحة والهدوء، وقفتُ -ولهاث أنفاسي يردد صداه خافقي -أمام مقهىً تفوح من أجوائه رائحة الشاي الزكية، دخلت وفي عيني نعاس ليل معتق.

جلستُ خلف طاولة منخفضة، طلبتُ الشاي، فكّرتُ في نفسي وكلّي همّ يملك تفكيري الضجر، إذ عليّ البقاء بعيدًا عن (ريتا) لمدّة عام أو أكثر، أجِدُّ في عملي، أجمع المال الكافي، أبتاع بيتًا يجمعني وإياها تحت سقف واحد زوجين.

استطعت مرغمًا تثبيت قراراتي المتأرجحة وزمّ الشفاه وترويض نفسي التي دومًا ما تطلب مني وبإلحاح الاتصال بها لأطلعها على كلّ صغيرة وكبيرة، كانت تكشف رضاها ورضا من حولها بما خططته معها لمستقبل أتمناه سالكًا.

الخوف من الفشل يدفعني إلى الانضباط في عملي والالتزام بما قررته من جمع للمال وعدم بعثرته هنا وهناك.

صحيح، فقدت الثقة بنفسي لبعض الوقت، كنت فيه أخشى عليَّ من تلك النوبات التي لازمتني طوال حياتي، الملل من النظام والالتزام بالرتابة.

إلّا أني كنت مصرًّا بحزم شديد على ألاّ أعود ذاك الإنسان الذي يمشي بعينين تريان ولا تبصران.

انطلقتْ سفينتنا التي تصالحت مع الهدوء والسكينة مسرعة على ظهر المحيط الهندي ثمَّ البحر العربي صوب البحر الأحمر عبر مضيق باب المندب، وصلنا بسلام إلى بور توفيق عند خليج السويس وهناك انتظرنا ليلة واحدة في منطقة الانتظار عند محافظة السويس وفي الصباح اجتزنا القناة مع قافلة من السفن المتجهة صوب البحر الأبيض المتوسط.

كانت نقطة انطلاقنا من السويس إلى الأبيض المتوسط بور سعيد فيها تغيّر الجوّ إلى الأفضل.

الراحة التي لامستْ قلوب الجميع كانت ماثلة الابتسامة في الوجوه، كانت أكثر من رائعة ارتسمت على صدر الأبيض المتوسط الذي كان هو الآخر صافيًا عذب البرودة هادئًا بلونه الأزرق يحرِّك السلام في النفوس من معايير جمال كانت أمامنا وأخرى تنتظر عند المرافئ القادمة.

قلّلتُ من تدفّق مياه البحر الباردة إلى منظومات التبريد.

راقبتُ عن كثب انخفاض درجات الحرارة لمقاييس المحركات التي كانت تدور بكلّ راحة...

لم تحدث لنا مشكلّة تذكر ونحن نبحر لمدة ثلاثة أيّام على ظهر الأبيض المتوسط من جمهورية مصر إلى ميناء جنوا الإيطالي عبر بحر (التيراني). التصقتْ السفينة بالمرسى فانطلق الضجيج بالممرات وغادر كلّ البحّارة غرفهم على شكلّ طوابير الانتظار، نافضين التعب من السفر الطويل

وغاسلين ما علق من أملاح رذاذ موج البحار بأجمل ملابس تفوح منها تلك العطور المغربية...

من دون الحاجة إلى الكلام لوّحت لهم بسلام، لزمت مكاني في السفينة.

لم أفكّر إطلاقًا في النزول والتجوال معهم، رغم رغبتي التي كانت تحرّكني بشكلّ جنوني إلى دخول حانة أو مرقص أو متحف أو المرور بالأسواق والطواف بشوارع مدينة كانت لا تأتي إلى مخيلتي لا في الصحو ولا في الأحلام كنت أتجنب الأمور التي لا تسير على ما يرام.

الخبر القادم سيغيّر من عزمي على البقاء في السفينة والابتعاد عن الجمال الذي عرفته لحظة ما فكرت: «كيف السبيل للاتصال بريتا؟».

لم أكن أعلم أنها قطعة من الجنة وقلبي إليها سيميل لاعنًا اليوم الذي ضاع في المستحيل.

الرغد وعد، الملذّات منون، شافية تصنع من صورتها كأس الياقوت تؤنس الأرواح في دنيا الوجود، لم أكن أعلم في هذا العالم يحضر الجمال هكذا وبهذه الهيئة البهيّة وتلك الوجوه الحمراء والأجساد البرونزية، إلّا في تجاوزي بوابة الميناء؟ رأيت في المدى تعويذة من العشب الأخضر تلفّ أشجارًا قُلِّمَتْ أغصانها الطريّة، من وحيِّ الخيال صارت عارية السيقان والأذرع تعانق بعضها بعضا، تتبادل الضحكات فوق تراب تفوح منه رائحة حياة مغربية، هناك نساء نصبْن شراك

الهوى، حمراوات ممشوقات يعانقنَ رجالاً لا يقلّون عنهنّ جمالاً، هنا فوق الرصيف رأيت عشقًا يترك ظلّ عناقٍ ورنين قُبلات!

مدينة حاضرة كمنطقة بحرية تقع في الساحل الممتد على طول الأبيض المتوسط من اتجاه الجنوب، تحيط بها التلال الخضراء التي زُيِّنت بالأضواء كالأزرار في معطف شتوي تحيطها أشجار داكنة الخضرة من كلّ الاتجاهات، يتدفّق من الشفة اليمنى لها جدول من المياه الصافية.

مدينة (رفيرا ليفانتيفي) كلّ حيٍّ من أحيائها تجد فيه خصوصية تميِّزه عن الحي الآخر، في المناخ وبناء البيوت والألوان وشكلّ الطرقات والمحال..

مدينة من سرمد الملذّات والضحكات تتدفق إلى القلب بلذة ضياء ومسرات قصوى وأنت غريب تقاتل السهاد بقلادة نجوم تتلألأ واضحة البريق تحت ضوء قمر مكتمل النمو ضاحك.

تجد في شوارعها المتفرقة أماكن مختلفة في الطراز، كأنها تلبس في كلّ مسافة تتجاوزها ثوبًا جديدًا فرحًا بوصولك، مرة تجدها في الثوب الإغريقي ومرة من الروماني وأخرى الفرنسي أو البريطاني أو العربي كلّها تتجلّى لعين الرائي المتوغّل في الطواف، على شوارعها تنتصب الفنون، بين ضفتيها القصور الكبيرة والساحات الخضراء و(النافورات) الجميلة والحدائق الرائعة زيّنت بالنصب الحجرية لنحّاتين

مشاهير وشباب.

رأيت ذلك التمثال العاري تمامًا يعرض مفاتن قامته منتصبًا على حجر من المرمر الأسود، على وجهه ملامح قوة واضحة وفي عينيه المتسعتين نظرة عميقة إلى من حوله، تمعَّنتُ في أطرافه المطرزة بالأحجار الثمينة، شدّني لمعان برونز الرجل ذي الوجهين المعلّق أعلى بناية البلدية كشعار للمدينة.

وقفتُ مندهشًا أمام روعة ذلك النُصب للفارس الذي كان يطعن التنين وهو على صهوة جواده، زرت معرض (ما دزوني) المسقّف بالزجاج، مررت بمحطة الأنفاق، وقصر سان جورجو، من غير شعور وقفت في ساحة دي (فيزاري انغولو) التي زينتها من الوسط نافورة حبّ وناطحة سحاب.

هنا في هذا المكان هبّت نقطة ضعفي من جديد، كرهت الهروب من المستحيل حالمًا، حملتني ذاكرتي إلى ذلك الكازينو، تراءت لي (ريتا) بعينيها المتألقتين اشتياقًا أعرفه من بين كلّ الموجودين تريدني ولا تريد أحدًا سواي.

لقد بدا لي كلّ شيء رغم جاذبيته يؤكد ضخامة الدور الذي لعبته وحدتي في نفسي، أدركت فداحة خطأي في النظر إلى العشاق، والتخيّل بما تحاوروه همسًا كنت و(ريتا) نفعله.

في ظلِّ هذا الاحترام للالتزام الذي عاهدت به (ريتا) لم يكن بوسعي إلّا مواصلة السير؛ لأبدأ ما أتيت من أجله وهو الاتصال بها ورؤية وجهها عبر «الانترنت»، لكن بعد وقت

من الخطوات المتخبِّطة هنا وهناك بدا الأمر صعبًا.

من أين لي أن أعرف مكان المركز؟

كيف؟ وبأي طريقة أتصل؟

لابدّ لي من العودة إلى السفينة؛ أنتظر صديقي رئيس الضباط ريثما يعود؛ فمن المؤكّد هو الآن قد أستدلَّ الأماكن التي يرتادها البَحّارة كعادته عند أوّل تجوال له في أي المدينة.

في صباح اليوم التالي توجّهتُ إلى أقرب كابينة واتصلت ب (ريتا)...

كانت تبكي بصمت وهذا ما تخيّلته عندما عرفتْ مكاني، سمعت بكاءها فتأكّدت لي أن ما تخيلته كان صحيحًا..

تهاويت من توسلاتها وتهت في رنين قُبلاتها الأخيرة تودّعني على أمل أن أجد مركز «الأنترنت» الذي وصفوا لي مكانه.

صرت أعرف المكان جيدًا وهذا وحده كافٍ إلى دفع القلب للاهتزاز في الصدر، لكن الدهشة البكماء التي لبستني من هول ما رأيت ضيّعتني بين الطرق والمنعطفات، المحال. تلتمع من الداخل، الحانات تخرج منها نساء نصف عاريات يقهقهنَ ضاحكات ناعمات مترنّحات وأخريات راقصات فوق صدور رجال تفور مستمتعة!

غادرتني رغبة الوصول إلى غايتي يحركني الفضول إلى اكتشاف نفسي، دخلت إحدى الحانات، رأيت عالمًا عجيبًا،

لكنه ليس بغريب، الكلّ يضحك ويُقبّل شفاهًا حمراء في أجساد مضيئة كالبلّور تتحرك على ألحان تنهض إليها العيون، تتوسد المهج، متسعة تثير في داخلي شعور الرغبة يجعلني خاضعًا للبقاء بمكاني تحت قوة سحرية محاطًا بكلّ ما يرغب به مثلي ممن يريد الاستمتاع.

نساء، نبيذ، جمال، ضحكات، رقص، موسيقى. كلّ الأشياء كانت رائعة في حرية الطيران، والأروع لا أحد يعرفك على وجه التصرف في الفرح الذي يُسهم في التحليق بعيدًا عند فضاء مكهرب فوق الطاولات.

أُحدِّق بمن حولي كمن يحدّق في لوحة كبيرة رائعة الجمال أُصيبَ بالدهشة ضاحكًا مرة وأخرى أعود للانبهار صامتًا.

بدا لي أفضل فعل أفعله الآن هو الاختلاط مع الراقصين للغوص في عالم لا يعرفني فيه أحد، لكن ما أن رأيت فتاة تتقدّم نحوي بيدها ورقة وفي الأخرى تعدل الوردة البيضاء العالقة في شَعرها!

قلت: (ريتا!)، فشعرت بقشعريرة برد في جسمي الذي نهض وعجّل في المغادرة.

أفكر في عهدي، محاولة مني كانت صريحة إلى فهم ما كان ينقصني من الالتزام بعهدي والارتباط بشكلّ أدقٍّ وأصدق بحبٍّ كان كافيًا لملء قلبي سعادة وأملاً، عندئذ تناغم الشوق وتعالى في رقصة اللقاء خلف كوة الوقت، باسمًا توجهت إلى مركز «الأنترنت»، فتحت «إيميلي؟»، رأيتها تنتظرني منذ

ساعة تقريبا على صفحة « الياهو» تسألني سبب تأخّري في الردِّ إليها بعبارة: «أين أنتَ؟».

في الحال كتبت لها، فأخذ الوقت يجري من تحت أقدامنا غير مدركين أن النهار غادرنا والمساء قد حلّ.

قالتْ عليها المغادرة إلى عملها؛ لأن زوجة أنطونيو التي اتصلت بها تريد منها الحضور بدلاً عنها في الكازينو.

غادرتُ المركز احمل بقايا حزن وألم من نقاء (ريتا)، صدقها في حبّها لي تجلى في روحي التي تمنّت لها يومًا سعيدًا، حتى إنها طلبتْ مني تجنّب المخاطر للمحافظة على بقائي قويًا، وأنا الذي كنت قبل قليل ألمس نسيانها في تلك الحانة!

لم أبصر أمامي، على الرصيف كنت شبحًا، اتخيّل ألا أحد يراني ولا أرى خيالي.

من سواي أثقل جسده بالآثام؟

كم يكون الشعور بالذنب مؤلمًا عندما يكون في الصدر شيء لا تستطيع البوح به.

بدت الحياة تتضح، مرّت الأخيلة التي لم تتشكلّ أمامي بعد.

أخيلة كنت فيها خافت الشباب أعيش بسكون لا تخترقه ضجّة الحياة، لم أشعر بالمسرّات ولا الأحزان بوقت واحد أرفق بحالي في الطلب، أجدّف في الأيام على مهل.

اللامبالاة الفظة تطوِّقني في جوٍّ ساكن لا يتحرّك، يتوسّل

بي القدر بإيماءات راجفة مشوشة.

الآن عليّ وحدي ولا أحد معي تحمّل وجع الحبِّ بتحدٍّ أسارع فيه الحركة أُريد سباق الزمن، الوصول إلى توقي الملتهب الذي تقاسم معه البحر جمال الوجود في دنيا تشير كلّ أشيائها إلى مملكة النائمين (دوماي).

عدت إلى السفينة ولم أكلّم أحدًا، دخلت غرفتي، مثقلاً بالتفكير ارتميت على سريري، منشغلاً في نفسي أُفكّر بما يمكن ان أفعله بأيّامي القادمة، لم تعدّ أفكاري تحلّق برشاقة ولطف مثلما كانت إلّا بعد إطفاء مصباح الغرفة التي تلحف أجواءَها الظلامُ، في الحال كنت والخيال وكأنني بين صدر وذراع (ريتا) حتى غفوت، رأيت في المنام ما كنت أريده.

في الصباح كنت أحتمل البقاء على عهدي وأنا أردِّد عبارة: «الذنب يموت في الصمت».

في غناء ملء فمي انتهى النهار؛ فكلّما ركَنتُ إلى الصمت سمعتُ همسًا خفيفًا يحلّق فوق رأسي يدفعني إلى الغناء.

انقشعت عكرة أنهاري في تدفّق المياه الصافية من ينبوع الصباح الأنقى من أنهار البارحة المتعثرة في الجريان، أوهام كادت تسلب لبّ عقلي لولا النوم الذي تكفّل بكنس الهمّ بعيدًا عن أبواب روحي التي تعلّمت الحبّ واعتادت السكن خلف جدرانه الحصينة كلّما عوت الريح في الخارج..

هذا ما كنت أتصوره من سبات ليلة البارحة.

الأهم، أنني الآن أشعر أنَّ أفكاري بدأت تستعيد ثباتها كلّما طال الوقت وتتضح من قراري الذي اتخذته للتوّ راجحة قراري؟

أعيد الاتصال بـ(ريتا) وأخبرها عن موعد إبحارنا اليوم عند الساعة الحادية عشرة ليلاً.

الساعة الخامسة

قبل منتصف الليل أبحرنا..

هبّت ريح ضعيفة ولاحت من هناك جبال باهتة ولا أدري كم كان ارتفاعها أمام أنظار كانت لنا مودّعة؟

تتبع تقدمنا غيوم سوداء رمادية، دون منغّصات ولا أخطار كنا نسير على ظهر صديقنا الأبيض المتوسط، لكن لا أحد يعلم متى يغضب؟

في غمرة أفراح الطاقم من سرعة نزولنا جنوبًا نسير بمحاذاة سواحل (موناكو) ثمَّ (مارسليا) بعدها (برشلونة)، حتى (فالنسيا) تجاوزنا (غرناطة) فانعطفنا بسهولة ويسر يمينًا.

ولأيّام صار قبالتنا مضيق (جبل طارق) لتكون على ميمنة سفينتنا مدينة (إشبيلية الإسبانية) وعلى ميسرتها مدينة (فاس المغربية). كنا نمرُّ مرورًا سهلاً ورشيقًا بين ضفتي مضيق جبل طارق نبحر بخطّ مستقيم حتى رأس سافونسنتي- فارو البرتغالية، انعطفنا صوب الشمال.

تقدمنا صعودًا إلى خليج البسكاي.

الميناء القادم (أنتويرب) في بلجيكا.

كان الوقت ليلاً عندما كنت أنظر إلى السواحل البرتغالية

البعيدة، بدت وكأنها خطٌّ أسود ينتهي بنهاية النظر إلى لشبونة بقمم جبالها المتوهّجة كالسحر بضياء أحمر ولا أعرف سبب هذا التوهّج، ولا أريد أن أسأل؛ كنت مستمتعًا بالمنظر الذي كنس همًّا كان جاثمًا على صدري من لحظة وداع (ريتا) عند آخر اتصال معها هناك في إيطاليا.

غنّيتُ في المدى وحدي أعددت لنفسي حلاوة الرؤى كالمهاجر النجوم بوصلتي والقمر النيّر بوجهه الضاحك نديمي..

أغمضتُ عيني أنشق الهواء وأحلم.

رأيتُ الأشجار تنحني والطيور تَغطّ في نوم عميق والموج المغموس بعمق البحر ينظر إليَّ بعينين تلتمعان ابتهالاً بموسيقى كانت تعزفها طبول قلبي فلا يقبل على نفسه الدوران في الأقل الآن.

تخيّلت أنني أغفو على وجه البحر المتعطّر بروائح الأرض، بنيت فيه بيتًا ونقشت على صدره اسمًا وعبرت إلى اللانهاية، خلفي كلّ الآثار تكبر وتتسع مثل المستحيل أحاول ألاّ أجيب عن ذاك السؤال: «متى ترجع؟».

مضت الأيّام ثمَّ الأشهر، ما زلت لا أعرف الإجابة.

أحصيت كلّ الأيّام التي مضت بدقّة ولو أمكن لي فإنّ الأمر المنطقي الآن هو التوجّه شرقًا، في الحال نرجع صوب (دوماي)، لكن أنا متأكد أنه حلم من أحلامي التي ازدادت في

الأيّام الأخيرة.

في غمرة الأمنيات والتيه، صحوت على رجفة برد، رفعت رأسي من خلال فسحة فيها إلى السماء، رأيت القمر غائمًا والنوارس خائفة، الوجع القديم عاد أنينه من الموج الراضي بالهدوء، السفينة تتمايل، سمعت صوت مكبّرات الصوت تصكّ مسامعي بصهيل حنجرة القبطان تطلب منا الحيطة والحذر لقد وصلنا (فينستير) المنطقة الشمالية للبرتغال ومنها سندخل البسكاي، لكن لم يكن البسكاي هذا إلّا عاصفة هوجاء! شعرتُ بزوال الأوقات السعيدة، دخل إلى قلبي الخوف عندما رأيت كتلاً هائلة من الغيوم السوداء تتلبّد في الأفق، بينما الأمواج أخذت أشكالاً مخيفة من حركاتها اللولبية، كانت غريبة!

تحسّستُ الخطر القادم من صوت الريح وتدفق شلاّل من الماء على ظهر سفينتنا التي هوت من أعلى موجة انفتحت أمام مقدمتها، دفعت بنا هبوطًا نحو وادٍ عميق من الموج، يتّسع؛ لترتفع بنا موجة أخرى ثمَّ تقذف بنا في وادٍ عميق، مرة تلوّ أخرى تنفتح موجة تهبط بنا نحو وادٍ ثمَّ ترفعنا، بدت مؤخرة السفينة تخلّف وراءها شقًّا طويلاً على صدر الماء الذي صار والأفق كجزأين يفصل بينهما بحر هائج.

أحيانًا أسلوبي الفظّ يجلب لي المتاعب مع الآخرين، لكن كان هو الأصلح في هذه الظروف، بعد المشاورات الخماسية مع القبطان كنت استثار جدًا من جُبْن صديقي رئيس

الضباط الذي كان يطلب بإلحاح وتوسّل الوقوف في منطقة (لاكارونيا) الإسبانية ريثما تهدأ عاصفة خليج البسكاي.

على النقيض تمامًا من شجاعة القبطان ورئيس المهندسين اللذينِ قالا من المتوقع وقوفنا سيكلّف الشركة الناقلة الكثير من الخسائر المادية لما سيدفع إلى الميناء المستضيف من مبالغ هائلة كقيمة تستوفى مقابل الانتظار على جانب رصيف مينائهم. وأيضًا حرق الكثير من الوقود والتأخير على موعد تسليم البضاعة التي كانت في باطن سفينتنا تقدر بخمسة عشر ألف طن من مواد حديد وخشب ومعدات وآليات هندسية ولابدَّ من إيصالها قبل دخول العام الجديد إلى ميناء (أنتويرب) في بلجيكا.

تكلّم القبطان مضيفًا إلى أن العاصفة بدرجتها الحالية لا تزيد عن خطورة المحيط الهندي قبل بضعة أشهر وعليه انتهى الاجتماع بالمضي قدمًا إلى الدخول في العاصفة بعد ما قلت بصوت عالٍ:

- كيف ترضون أن يقال عنّا قد جبُنّا من مَوْج لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أمتار ونحن على ظهر سفينة طولها مائة وخمسون مترًا، وعرضها خمسة وستون مترًا، وارتفاعها عن مستوى سطح البحر أحد عشر مترًا، لها محركات تعمل بقوة عالية ما زالت جديدة وفيها طاقم أغلبيته من الخبرة والطاقات الشبابية؟!

صَمَتَ الجميع....

صاح رئيس المهندسين ومن ثمَّ ضابط الاتصالات:

- نعم، إنّه صادق.

طبعاً إلّا صديقي الذي لاذ بصمته ينظرني بغضب يكشف لي تحسره من عدم رضاه.

في غضون دقائق تفرّق الجميع، بقينا أنا وهو، كان ينفث دخان غليونه في وجهي مصممًا على النظر بثبات وكنا متعادلين بذلك.

كلّ فرد منّا في وقت واحد ينظر إلى الآخر بمزيج من التأمّل والصبر، في ضياع الأنفاس خرجت منه كلمات لم أسمعها، كرّرها بصوت أعلى وانتهى ضاحكًا وضحكتُ معه على مزاحه الذي قاله هكذا دون مقدمات:

- لقد نجحتْ هذه المرة أساليبك الفجة معي.

- لا أقصد الإهانة ولكن في التجلّد رجولة.

كنت ممسوسًا بالوقت، أريد الأرض ولا أريد.

أريد الابتعاد ولا أريد.

لكن الذي أريده من الوقت الجري بسرعة؛ حتى أجمع ما قررت جمعه بغضون سنة واحدة أو أكثر بقليل لأعود إلى (ريتا).

كأنما لا يوجد غيري على وجه الأرض شجاع؟

تصرّفت بحماقة، حملت بعده الألم من الغرور الذي ركبني

وقلّل من حيائي وخجلي مع أصدقائي البحّارة عمال الماكينة.

تغيّر مزاجي فجأة، صرتُ عصبيًا بعض الشيء، شديد التمسك برأيي، أصيح على هذا غاضبًا من ذاك؛ أريدهم أكثر جدية ونشاطًا يعكسان سلطتي؛ لأحسن سير العمل حتى اليوم الثاني وجميع العمال كانوا تحت سياط لساني الذي لم يتوقّف حتى تعثّرت بدرجات السلّم فسقطت على وجهي عندها هبّوا جميعًا لمساعدتي، كلّ يفعل ما يتوجّب عليه فعله وانتهوا بي يحملونني على أكتافهم إلى غرفتي يتناوبون على معالجتي من رضوض تركت بعض آثار على جبهتي وكتفي اليمنى ليوم كامل ناسين كلّ ما فعلته وقاحاتي معهم.

لا أعرف من أين أتاني هذا المزاج الحاد؟

على رغم البحر الذي كان يعصف بنا من كلّ اتجاه، كان يتوجّب عليّ أن أكون أكثر تسامحًا؛ خليج البسكاي لم يكن رحيمًا معنا أبدًا يذكرني بصغر حجمي وضحالة تفكيري وعدم جدوى غطرستي اتجاه زملاء كانوا كالأهل معي، ندمت على فعلتي، تقدّمت لهم فردًا فردًا بالاعتذار وقبّلت رؤوسهم طالبًا منهم مسامحتي، وعندما حصل ما أردت عدنا كما كنّا نعمل ولا فرق بيننا كلّ باختصاصه ينشغل بعمله.

وصلنا إلى منطقة الأمان، رأس القنال الإنكليزي عند أنف منطقة (رينيه) التي تطلّ على بحر (المانش) والتي منها صرنا في نهايات البسكاي والموج فيها أهدأ.

شقّت السفينة بصدرها المفعم بالنشاط وسرنا بسرعة

أعلى صوب الميناء المنشود متجاوزين بمسيرنا مضيق (دوفر) حتى وصلنا ليلاً.

كانت الأضواء المتوهجة من المدينة إلى الميناء وصولاً إلى عينيَّ، تشعل في نفسي الرغبة إلى الانصياع نحو الاستمتاع والغوص في جماليات من حولي.

كنت في لحظة وصولنا مندفعًا إلى ملامسة الأرض مثل الريح عندما تندفع إلى البساتين، تفور في عروقي الرغبات مبحرًا على ظهر أخيلتي إلى حيث المكان أو لا مكان.

كان الأهم تغيّر المكان إلى حيث الظنون الأليفة التي تحرك اللامرئي وتضغطه حنينًا إلى الأرض، بين فينة وأخرى اغادر مكان عملي إلى ظهر السفينة؛ أقف على السطح، أنظر بشغف إلى (أنتويرب) وهي تتبرّج لدخول العام الجديد، كنت أقف ساعات طويلة دون ملل أو كلل، شغوفًا بها إلى حدّ الانصهار ولا أعرف السبب.

بقيت ثلاثة أيّام في عزلة عن العالم بعدها قررت النزول والتجوال في شوارعها كنت بحاجة إلى شراب بارد يهدئ الأعصاب وينعشها.

لحظة لمست فيها الأرض، شعرت برجفة لذيذة تهزّ كياني، تسرّبت الشحنات التي تأتي من تمغنط أجسادنا ببدن السفينة كان معتادًا في هكذا أوقات هذا الحال، شكرت الأرض وصلّيت بطريقتي؛ لتكون تلك الليلة أكثر حظوة بالحب..

كنت في غاية السعادة؛ اليوم يصادف دخول العام الجديد.

المدينة تتوهّج بمصابيحها الملوّنة، تروح وتجيء تحتها الناس غير مبالين بالبرد، تطلُّ من على وجوههم حمرةٌ طاغية، في معاطفهم الملونة هيبة المكان، تلفُّ رقابهم أربطة مطرّزة، كنت شديد التفكير بفتاة ترافقني طوال السهرة.

توجّهتُ إلى مركز المدينة، رأيت بلجيكا كما قيل عنها جوهرة في وسط أوروبا، مررتُ بشوارع تشاهد نهايتها قريبة، رأيت وسط بناياتها المرتفعة المحصنة إله الخصب والشباب، كان تمثالاً مرصعًا بالماس تحيطه لوحات جدارية من العصر الروماني، سَرّني تمثال سيدة أنتويرب المتلألئ بالأحجار الملونة، رأيتُ حدائق تتلاقى تظهر من كلّ زقاق وشارع تحيط بالمباني الأثرية، رأيتُ تمثال القفز مازال يقف وسط المدينة منتصبًا، شعرتُ بالماضي يتنفّس من خلال لوحات القرون الوسطى، تعرفت على متجر (روبز) الذي كان مفتوحًا للجمهور طول اليوم، مررتُ بمتحفٍ للماس والتاج المقلد، زرتُ حديقة الحيوان، سرني مشاهدة الطاووس والكنغو، أدهشني جمال الأسد الذهبي (فامارين).

تجوّلتُ كثيرًا ولمسافات طويلة شعرت أنني بحاجة إلى الراحة والشراب، دخلتُ مكانًا تخرج منه الناس بوجوه ضاحكة تدخل متدافعة، جلستُ خلف طاولة قريبة من الباب، مثل طفل وديع ألقيت بنظري على من حولي، الأضواء

خافتة والموسيقى هادئة تدفع بأناملها الرشيقة اللينة بعضًا من العشاق إلى الرقص كالفراشات على قرص زجاجي، أو هكذا يبدو لي زجاجيًا لمّاعًا ملونًا يتحرّك بشكلّ دائري.

هناك حيث أماكن الجلوس على كراسٍ تشبه الوقوف، كان الرجال يجلسون قبالة النساء يشربون الشراب الملون ويدور بينهم حديث خفيض، يعانق بعضهم بعضا.

الظنون تراقص الليل، وأنا وحيد أستغيث من صراخ الأمنيات المتأجّجة في داخلي مثل فتى صغير في مكان ليس مكانه يجوع ويقاوم ويعطش ويقاوم ويريد ولا يقول ما يريد.

قطرة بعد قطرة اخترقني اليأس وأثقلتني الطرق المستحيلة، مضطرب الإحساس قابعًا في مخاض يرشُّ في العينين المحدقتين بالجواب: «ما أنا إلّا غريبٌ ينتظرُ يداً تمتدُّ إلى صدره، تقلعُ قلبًا جرحته الأشواك، ضمّدته المرافئ، يريد غرز أفكاره بين السحر والجمال؛ لا لشيء فقط للنسيان».

تضاءلت الأمنيات وخبا عن العينين قمر يختنق، هممتُ بنفسي رغبة المغادرة.

نهضتُ، فرأيت امرأة مكتملة النمو شهية، مثل تفاحة حمراء تفوح منها رائحة عشب بحري تضحك الي وكأنها تعرفني، بطرفة عين جلستْ أمامي تشاركني طاولتي، لطالما تمنّيت التصرف بطريقة غريبة على الأقل الآن، لكن لفرط فرحي تصرّفت بسذاجة، إذ تحركت كالأبله أمدّ بيدي أردِّد:

- أهلاً، أهلاً!!

نظرتْ نحوي، مبتسمة تهزّ برأسها دون مصافحتي، شيّعتها بنظرة متسائلة وفي صدري لهاث تفكير في جواب عن سؤال: «واضح إنها لا تستلطفني؟»

لكن، لكنتها الأجنبية التي تشبه لحن كمنجة أغرتني بها حد الانصياع حين ردّتْ تحيتي:

- أهلاً.

تحرّكتْ مثل ملكة ترفع من رأسها خمارها الصوفي المطرز بحبّات البرتقال، وبمنتهى الرشاقة كشفت لي خيوطًا من الذهب الخالص تتموج في الهواء تطير كالأحلام تفوح من ذوائبه الطرية عطور مغرية.

جعلتني أحلم ولا أدري بمَ أحلم، أنا رجل أتوق للجمال وهي ومضة ضوء تتوهّج حتى تبدد الظلام في الثلاثين أو نحو ذلك طويلة أنيقة قرنفلة متألقة من أخمس قدمها حتى هامتها، يلفّ قوامها الرشيق المتحول اللذيذ الماء والنجوم، كلّ شيء فيها جميل، كبيرة الوجه، واضحة القسمات، تمتاز بفم ممتلئ الشفتين صغير لونه أحمر ملساء شفافة رحبة منتصبة مصقولة وردية وبيضاء.

الرغبة التي نمت في سراجي المظلم للاشتعال توهجت واتخذت الأفكار في رأسي شكلّ الشك: «هل تحتمل معاشرة شاب يصغرها سنًا؟».

عقدت العزم على مصارحتها، أجل إنها جميلة، وجميلة جدا، لكن، هيا يا عزيزي البَحّار تكلّم، أيستدعي منك الأمر كلّ هذا التردّد والصمت؟

هيا قل ما في نفسك، لا يهمّ، إنه مجرد سؤال. تشجّعت مندفعًا بغروري الشرقي، قلت:

– كنت أتمنى لو تبادلنا الحديث؟

مالتْ بجسدها نحوي تلتصق بي تهمس بغنج:

– ماذا؟

لحظتها عادتْ الثقة التي كنت أريدها أن تأتي إلى نفسي، تسري بداخلي بقوة الرغبة أشمّ رائحة شَعرها، شَعرها الذي لامس وجهي، نغمات صوتها تدغدغ أحاسيسي مثل حبّات ثلج في يوم حار جعلتني أهتف مبتسمًا:

– ما اسمك؟

قابلتني بوجهٍ باسم، أرتني عطف عينيها كفعل الأصدقاء ردّتْ:

– أنتَ عربي؟

شعور ليس بشعور، إحساس لا أعرف من أين أتى؟ غرابة تعرّقٍ اكتسحت جلدي ولا أعرف قرارًا، تلعثمَّت الحروف في حلقي، رجفت، لم أستطع القول غير ما تحمّلت قوله:

– نعم.

هزّت برأسها وقالت بلهجتنا العربية:

- أنا مغربية الأمّ، بلجيكية الأب.

ضربتُ كفًّا بكفٍّ مصفّقًا من فرط دهشتي صحت:

- أنت تتكلّمين العربية!

غمزتْ بعينها اليمنى، قالت:

- «اشوي.. اشوي».

ثمَّ أخذتْ تحضن كفّ يدها بالأخرى تسألني وأنا أجيب عن كلّ أسئلتها، عرفتْ عني كلّ شيء بعدها نَهضتْ من مقعدها، تلفّتت برهة، وسحبتني من يدي هاتفة:

- تعال.

- إلى أين؟!

غادرنا المكان المزدحم، بعد مسير خطوات جلسنا في مكان أكثر هدوءًا وترفًا، أسمعها بوضوح، تسنّى لي رؤية لونها البرونز، أحدِّق بها مستمتعًا وهي تعزف بفمها الكلام، وصلت إلى حدّ الغرور وهي تغازلني بعذوبة، لا أحبّ مقاطعتها كلّ شيء فيها يأمرني الانصياع، لا أحد في الكون يستطيع تحريك نظري المفترس بها، لا أحد يستطيع استعادة قلبي منها، كانت الأشياء تجرُّ نفسها تبتعد عنّا، إلّا الخمرة وحدها تؤثّر في مواصلة حديثها بحيوية مفعمة الانشراح ومثل عينين من خلال البحر يستنطقان: «تعال». وفوق كلّ هذا مدّت يدها، بأنوثة آسرة حطّتها على يدي ثمَّ قالت:

– في نبرة صوتك موسيقى.

رفرفتُ كالطائر الذي لا يطير، أحاول نسيان مكان ما واستذكار كلمات كنت أكتبها شعرًا، شربتُ من الكأس التي أمامي أبلّل ريقي، أحاول النطق، لكن لم أفلح.

دفعتها حيرتي وتلعثم ألفاظي إلى القهقهة، رقص قلبي مثل الفراشة في صدري حين أضافت:

– فمك مبتهج.

كما الضوء يملأ الظلام، تكاثر في داخلي الارتجاف، حاولت إخفاء الحب الدفين، لكن لا.. مهما حاولت إخفاءه ما أيسر ما طلَّ من العين، اذ لا أحد يقوى على كتمانه، استجمعت كلّ صهيلي وأطلقتُ النشوة لأعضائي ومثل نارٍ عظيمة اشتعلت على وجه الماء رحت أهتف بصوت عالٍ:

– كلّ ما فيكِ فريد..

زادتْ بروح مرحة:

– «أنت مرح»

ثم أضافت بعينين حانيتين:

– اليوم تدخل السنة الجديدة سنسعد بها ونحن نتمنى، أريد لحظة تحرّك عقارب الساعة نحو الثانية عشرة الوقوف أمام البحر؛ عسى أنْ تتحقّق أمنية طالما حلمت بها.

من غير أن أسأل، من دون تردّد، انتفضتُ من مقعدي

وسحبتُ يدها، متوجهًا بها إلى هناك وطلبتُ منها طريق الأمنيات، سرنا مصحوبَين بنشوة الثمَّالة والرغبة حتى وقفنا بعد وقت وجيز أمام البحر.

كان الظلام النسبي يترك للقمر ضياءً خجولاً، يمتد على خدود شفتيها برغبة اللمس أقف بجانبها ألمح بين الفينة والأخرى ابتسامة منها، كانت ثملة ترفع بصرها إلى السماء ضاحكة تنزل بها صوب البحر تتحرك راقصة تغني...

استمر الحال بعض الوقت، كنت فيه على أحرّ من الجمر؛ أنتظر دوري متلهفًا ضمّها إليَّ، لكن ما أن حدقت في وجهي حتى قالتْ:

- اسمي (سوفيا).

وضعتْ يدها على صدري ثمَّ أضافت وهي تضحك:

- لا تخبرني باسمك.

الحقيقة تراجع لحظتها الاندفاع المشحون بالرغبة للعناق والقُبَل.

قلت في سري: «أعتقد أنّها الآن بدأت تستعيد وعْيَها، وبعد قليل ستحاول هجري».

حتى هتفتْ بغتة:

- كيف وصلت إلى هنا؟

عندها تبدّدت تلك الشكوك مثل تبدّد الظلام في الضياء،

مطمئنًا أشرح بطريقة مفصلة كيف وصلت، ولم أذكر لها (ريتا) ولا أعرف السبب؟

كانت تصغي ولا تصغي، تنظر إلى البحر وإلى وجهي. أفرغتُ كلّ ما عندي، لحظتها هدأت ثمَّ قالتْ:

- البَحّار، اسمكَ البَحّار.

فرحتُ كثيرًا بهذا الاسم، بتّ على يقين من أنها لا تريد هجري، وها أنا أحاول تشجيع بقايا القوى التي في رغبتي حين قلتُ:

- موافق.

هتفتْ وعلى وجهها ابتسامة إعجاب عريضة:

- أنت لطيف.

كنت أتشوّق إلى احتضانها من الخلف ألصق صدري بظهرها، أشمّها والنسيم يحرّكني حركة وحشية، رغم البرد القارص شعرت بسخونة أعضائي، أخرجتُ منديلي من معطفي ومسحت جبيني، بدا منظري غريبًا بعض الشيء، أحاول لجم صهيل خيولي، أنتظر كلمة منها.

كانت تنظر إلى البحر في صمت رهيب..

انقضت خمس دقائق ولا شيء في الأفق غير تنهّدات البحر المدوية.

- الآن.

هتفتْ وهي تخلع حذاءها الزهري وترفع من (بنطالها) الأزرق إلى حد المفصل تردد:

- هيّا...

ثم انطلقت صوب البحر راكضة تصيح بأعلى صوتها:

- اتبعني...

لم تكن لي رغبة في اللعب، الليل يرتفع، والظلام قد مَدَّ بجناحيه مبددًا ضياء القمر الخجول ولا أعرف كيف جاريتُ رغباتها؟

فعلتُ ما فعلت، دخلتُ البحر معها..

بقينا واقفين نغمض عينًا ونفتح أخرى، يغمرنا الصمت المترع بالضحكات البريئة واللهفة الطرية، عيناي كانتا سفينة لهب تسقط بين الموج والبرتقال.

كانت قدماها كالنجمات العارية تلمع فوق قلوع البحار، أغرق في وهج الألوان مبتعدًا عن أفقي، ضحوكًا بذروة صحوي سمعتها:

- كم الوقت الآن؟

نظرتُ إلى ساعة يدي وقلت والقشعريرة تسري في بدني:

- الحادية عشرة والنصف.

- لنا نصف ساعة لدخول العام الجديد. ثمَّ أضافتْ متسائلة:

– هل تعلم ما نفعله في صالات الرقص عند كلّ عام جديد؟

قلتُ صادقًا:

– لا.

– نحضنُ بعضنا بعضًا ونقبّلُ.

ثمَّ حرّكتْ رأسها إيجابًا، زادتْ:

– أُريدكَ أنتَ هذا العام.

بدا الزمن في رأسي يتوقّف، لامسني نوع من الغثيان الخفيف، رأيت القمر كالطفل تعلّق فوق أكتاف أبيه البحر ملوحا لي ضاحكًا، يتحرك بخطوات تخلف بعضها بعضا، تتباعد في حذر يرسم على الرمال من الأختام المحفزة للخيال، بدا لي وكأنه مشهد ساكن دونما جزع، محض خيال يفعمني بالشذى عند لحظات السكوت التي تشبه العلاج...

غادرنا مجال الموج، عدنا إلى هندامنا، ثمَّ سرنا صامتين...

وحدها الأصوات تدخل في مجال الرأس؛ تبحث عن مستقرّ لها، في زحمة الأفكار لا تريد الأشياء جرّ نفسها، المدينة المحال الشبابيك الصور الكتب الماء المالح والريح التي عادت تباعًا تريد مصاحبتنا مع بقايا حبات رمال تعلقت في أطراف ثيابنا..

رجفت من البرد، بدت الأحرف تتوارى خلف اختلاجات الشفاه المقبلة على القُبَل، تهاوى اللامرئي منصاعًا مثل

زورق متأرجح بلا قائد وسط تلاطم الأمواج.

الوقت اللعين صار لأول مرة بهذا الخبث، ثقيلاً لا يقبل أن يمضي، دخلنا مرقصًا مزدحمًا بالموسيقى والناس، جلسنا في ركن قصيّ متقابلين حول طاولة خشبية، طلبنا نبيذًا أحمرَ، ارتشفنا نصفه، تركنا الآخر وعدنا إلى الكلام.

أطلّنا في الحديث الذي لم نفهم بعضه، كنا نهذي نهذر نتفلسف ولا أعرف بالضبط.

أرشق الظلام بنظرات مبتهجة؟

أَمْ أرسم في تفكري ملامح رغبة؟

أضحك على أثر كل توقف في نهايات كلامي، كانت تأخذنا الجملة المبهمة إلى الضحك المفرط وإلى ضرب كفينا ببعض.

وعلى غفلة منا توقفت الموسيقى، أنتظر الجميع وقوفًا، كنا نسترق السمع إلى العدّ التنازلي: «١٠، ٩، ٨».. انتفضتْ (سوفيا) من مكان جلوسها تجرُّ بيدي وتهتف:

- تعال...

دفعتُ المقعد بظهري إلى الخلف، نهضتُ أهرول خلفها، وقفتُ مكان وقوفها لا أعرف ما أفعل، سحبتْ يدي بلطف، وضعتها خلف ظهرها، تحرّكتْ بي مثل جنحي حمامة، لفت بيديْها رقبتي، بدأت تتمايل راقصة، ببطء جسمها يلامس جسمي: «٣، ٢، ١»، ضعنا بدخول العام الجديد في امتزاج

القبلات طويلاً، بقينا...

ولا أعرف كم بقينا نعصر بعضنا حتى صفّق الجميع فضفّقنا، بعدها حطتْ يدها على يدي، قالت:

- كم ستبقى؟

- لا أعرف.

- هل لديك رفيقة؟

- لا.

همستْ في أذني:

- أ تقبل بي؟

- أتمنى.

دستْ يدها في حقيبتها، أخرجت منها ورقة، قالتْ:

- خذ هذا عنوان شقتي، أريدك عند الخامسة مساء الغد.

تمنيتُ لو سألتها البقاء أكثر، أو في الأقل مرافقتها إلى حيث تريدني، لكن لا أعرف ما الذي أخرسني؟

كيف لي قبول الليل طويل، والصباح بعيد، والمساء أبعد؟

سأكون طوال ذلك الوقت ضحية الانتظار شبه خاوٍ، أتمنى لو قلت أريدك الساعة، فهذا عطرك مازال يلتصق بثيابي يفعم أنفي، يشدّني إلى الرغبة الجامحة التي تجعلني عاجزًا تمامًا عن رفض كلّ ما تطلبينه مني.

ركنتُ عند زاوية الصمت.

صمتٌ تدفق في داخلي متصاعدًا، يغطّ فيه خافقي ولا أعرف مكانه، خرجنا من المرقص تقريبًا عند الساعة الثانية والنصف صباحًا، وقفنا على الرصيف، عانقتني وقبّلتني ثمَّ وشوشت في أذني:

- لا تنسَ، موعدنا الخامسة.

هززتُ رأسي أعلن موافقتي وفي داخلي رفض لم أستطع كشفه حتى بعد ابتعادها عني، ها هي أمامي تضيع بين الناس كضياع حبّة سكّر في بحر.

وصلت إلى السفينة الساعة الثالثة صباحًا، بحثت عن شيء أسدّ به جوعي، لم أجد، دخلت غرفتي أحاول النوم لم أستطع، ليس بي نعاس.

وأشياؤها تحرّكني بقيت أتقلّب حتى أشرقت الشمس.

كالعادة في كلّ صباح دخلت الحمام وخرجت للعمل، هناك طلب مني صديقي رئيس الضباط التهيؤ للسفر، الحمولة أُفرِغت، ولا يحقّ لنا البقاء في الميناء.

لا أعرف ما الذي أصابني غير أنّي أتذكر جيدًا أني سألته:

- متى الإبحار؟

- الساعة الخامسة.

اليوم الأول

غادرنا بلجيكا تحديدًا في اليوم الأول من العام الجديد الذي كنت فيه على وشك أن أخلّ بعهدي مع ذاتي بفعل دفع رغبتي الطائشة مع (سوفيا) البارحة..

القدر بجانبي..

أبعدني عنها سفري الذي صار ولأول مرة شيئًا حميدًا في نفسي...

ما زلنا نحو الشمال نبحر صعودًا إلى ميناء (ملدزبرة) في إنجلترا.

البحر الذي يحملنا خليطًا من مياه بحر الشمال والمحيط الأطلسي، لكننا في أمان من دوامتهِ العاتية.

إذ إننا في إبحارنا بين لندن وبلجيكا نأخذ السواحل في يسر، تساعدنا خطوط المسير التي عُينت من قبل طاقم بحري متخصّص في خرائط الملاحة بدراية عالية.

البحر الذي بدا هادئًا أتاح للهواء القادم من الشمال لمس السفينة عند صدرها، مثيرًا يدخل البهجة بلذة القبول إلى الغرف التي فتحت نوافذها مع أول شعاع شمس بزغت من وراء المد الأزرق لبحر كان يبدو عملاقًا نائمًا.

بقينا في إبحارنا الواضح نطوف المدى، يتقدمنا نسيم لطيف متجدد، دون أن نلاحظ سواحل أو طير، في صمت عجيب كنا فوق الجسد الأزرق نحلق، لكن بين الفينة والأخرى تظهر لنا سفينة نسبقها وأخرى تسبقنا، لم أكن أشكّ أبدًا إن هذه الرحلة ستكون أكثر تشويقًا ومتعة، عرفت أن الوقت كان بجانبي هذه المرة ولولاه لكنت الآن ألعن حظّي في أثمَّ الرغبة.

هذه الرحلة أطول من العمر أثقل من الجبال، قلت ذلك في نفسي عندما رأيت نقطة بيضاء في السماء تقترب رويدًا رويدا نحوي، تكبر أكثر وأكثر، لكن منعتني الشمس من التمعن والتركيز طويلاً، أشحت بوجهي برهة ثمَّ عاودت النظر إلى النقطة فرأيتها مواكب طيور بيضاء قادمة إلينا، لا يمكنني فهم ما يحدث أنا بعيد عن السواحل ومن غير الممكن أن أرى طيور النورس محلقة بهذا العمق وهذا الكم الكثير!

كان البحر فائق التألّق.

السفينة بسرعتها العالية كما لو أن وراءها يدًا تدفعها إلى الأمام، سمعت مرة أو مرتين أصواتًا تأتي من فوق رأسي!

رفعت نظري، رأيت بعضًا من تلك الطيور قد حطّت على سياج السفينة في أرجلها الحمراء حبات حصى ملونة!

من أين لها ما تحمل؟

كيف وصلت؟

ابتعدتْ الحقيقة عني، في تعقب الخيال اخترقتني الذكريات المنحدرة من هناك، مئات الصور تشكلّت أمامي تحت قبة السماء دانية، لامستُ ذاتي المحلقة إلى هناك حيث (ريتا)، نسيت نفسي عندها حتى الظهيرة شعرت بالجوع فعدت إلى أجواء سفينتي الضوئية عندها رأيت الطيور البيضاء بأرجلها الحمراء قد عادتْ من حيث أتت.

ها أنا متأكّد من أنّ ما رأيته قبل قليل حقيقة، لكن من سيصدّقني لو قلت ذلك؟

في عمق البحر رأيت طيورًا كثيرة تحلّق فوقنا وقد حطَّ بعضها على السفينة وفي مناقيرها الحُمر تمتمات راغبة تحمل في أرجلها حصى ملونة، تناولت غدائي في صمت وعدت إلى عملي أتجنب الكلام مع من يصادفني حتى المغيب.

في الليل جافاني النوم، صعدت إلى سطح السفينة في شعور رهيب بالسعادة ولا أعرف السبب، حسبتها من القدرة التي منعتني من الخيانة مع (سوفيا) لتسمح لي بذكر (ريتا) في حرية النقاء على لساني متى ما أشاء دون ألم ولا خوف.

لا أعرف كيف أصف تلك اللحظة حين رأيت القمر يهمس لي، أو أنه غنّى بصوت كالهمس في أذني.

لم أستطع التمعّن فيه طويلاً، عيناي تدمعان من توهّج الضوء، حتى إن الأشياء بدت لي تترنّح أمامي، مازال الوضع على حاله، عرفت قد حان زمن الغرق بالعواطف.

البحر بلا لون، القمر بضيائه باهتًا، الموج ضبابًا كثيفًا، الميناء ما زال بعيدًا، حتى الرغبات صارت وحشًا يفترس الحلم.

صرت متهمًّا في جفوني المرتجفة فوق عينيّ اللامعتين بصوت عالٍ كانت تغنّي أغنية وداع تحاول سحب الإجابة مني في سؤال: «إلى متى هذا الوجع مع الأسفاريا بَحّار؟».

في الصباح عرفت أنها مجرّد كآبة تلامس كلّ بَحّار في لحظة شعوره برعشة تتدفّق منعشة.

أنشقُ الهواء ملء صدري حتى ضربتْ وجوده أضلعي، غرّد قلبي شعرًا كان يرتقي إلى مرتبة الأدب الرفيع في الغزل.

لمحتُ وجه (ريتا) يتشكلّ أمامي على وجه الموج الأزرق المتلألئ تحت شعاع الشمس البراق، لملمتُ شفتي ورجمت البحر بقبلات كانت ندية وتركت العملاق وشأنه.

توجّهتُ إلى صالة الطعام، تناولت إفطاري على حسّ أنغام فيروز: «نحنا كنا طالعين».

في غضون دقائق كنت بين زملائي أمارس عملي في الماكينة بنشاط متجدد.

دخلنا ميناء (ملدزبرة) ليلاً، وأول ما فعلته وجّهت طاقم الماكينة بنظام المناوبة حسب أوامر رئيس المهندسين، ثمَّ توجهت إلى مقهى كابتن (كوك) برفقة صديقي رئيس الضباط الذي زار إنكلّترا سابقًا.

عقارب الساعة المعلقة أمامنا على جدار المقهى تشير إلى الحادية عشرة ليلاً بتوقيت (ملدزبرة)، هناك عند الجهة اليمنى لمحت بعضًا من النساء الجميلات يعترشنَّ مقاعد من الجلد البُنّي، ينظرنَّ إلينا بعيون واسعة الأحداق، في وجوههنّ ابتسامات عريضة، تحاملت على نفسي منشغلاً بشرابي ولم أذكر متى؟

وكيف؟

غاب عني صديقي حتى عاد بعد أكثر من ساعة يريد مني مغادرة المكان بصحبته فتاة شقراء ممتلئة وأخرى سمراء نحيفة!

- إلى أين؟!

- تعال وسترَ.

نزلنا إلى الشارع، توجهنا إلى مرقص يُدعى (مدسن) دخلنا صالة مرصّعة بالماس تتوهّج من كلّ الجهات تزدحم بالفتيات والشباب من كلّ الأشكال والألوان راقصون متعانقون يُقبلون بعضهم يتضاحكون، يتحدثون عن كل ما يحلو له.

لم ينتبه أحد إليَّ، ولم أعرف قطُّ ما سبب حضوري هنا؟

استحضر تلك الليلة في بلجيكا..

في الحال طلبت من صديقي المغادرة لكنه رفض، توسل إليه لساني قبل عقلي، تمسّك برفضه، عندها خرجت غضوبًا

في طوافي على الطرقات لوقت شعرت فيه بالسكينة والراحة استأجرت سيارة أجرة وعدت إلى السفينة.

الوقت تجاوز الواحدة والنصف بعد منتصف الليل عندما دخلت غرفتي، فكّرت وأنا ملقى على سريري في الاتصال ب (ريتا) غدًا..

هذه الفكرة كانت هي الملاذ الأخير الذي لذت فيه...

حاولت الحلم بما أريد في المنام فحصل.

رأيتني أخرج من بركة ماء نافضًا البلل من جناحي، ليس لي يدان، أحمل فانوسًا كان معلقًا برقبتي، أطير بخطٍّ مستقيم في حلقة ضوء فضية صوب غيمة فيها مملكة كبيرة يحيطها سياج من الذهب، قبابها الزرقاء وشرفاتها الحمراء دليلي.

رأيت فيها كلّ أنواع الفواكه والأزهار وفي أحد الشرفات كانت (ريتا) تقف بثوبها الأبيض تلوح إليَّ باسمة، لكن لم تكن هي نفسها، كانت بجسد طير أبيض ورأس وزة، نظرت في عينيها طويلاً حتى ارتجفتُ وسقط الفانوس، توهّج ضوء لفّ المكان ضباب أعاد إلينا جسدينا العاريين، عانقتها حتى صارت شفتاها المخطوطتان بالروج الأحمر الخفيف على صدري، لوقت طويل كنت أذوب برائحتها تارة وأخرى أتجمد...

أفقت من حلمي على وقع طرق باب غرفتي، فكرت بغضب، ثمَّ رجعت إلى عقلي، نهضت، فتحت الباب أتحرى من؟

رأيت صديقي رئيس الضباط يقف عند العتبة، يسألني عن سبب تركه البارحة عند المرقص؟

لم تكن لي الرغبة في الردّ، طلبت منه بحزم الذهاب إلى غرفته؛ كي يستحمّ يعيد نشاطه فالشمس قد شقت حجاب الضباب وصار الوقت السابعة صباحًا وعليه الإسراع في التوجه إلى العمل..

في الخارج كان النشاط على أشدّه، الحمولة تفرّغ من المخازن بسرعة غريبة، إذ لم يبقَ لنا إلّا يوم أو أكثر بقليل حتى نغادر الميناء، بهذا الوقت انتهزت الفرصة الذهبية وتجوّلت في المدينة.

لم تكن مدينة عادية أبدًا، كانت مدينة أحلام بالنسبة لي نظيفة ندية عذبة ملونة الأشجار منظمة تعجّ بالمحال البراقة والمترفة.

كلّ شيء فيها يحاكي التطور والترف.

وكأنها من كوكب آخر انتهيت في سوق للطيور قضيت فيه ساعات النهار، عدت بعدها إلى السفينة.

عند الصباح أعلن القبطان من خلال مكبرات الصوت أن الإبحار بعد منتصف النهار، طالبًا من الجميع عدم مغادرة السفينة والتهيؤ إلى السفر.

هكذا عدت من حيث أتيت على ظهر سفينتي تحملنا البِحار تارة والمحيطات في أخرى، نمرّ بمضيق وقناة، لوقت

ليس بقصير دخلنا الأردن ميناء العقبة؛ لغرض التصليح والتزوّد بالوقود ومنها سافرت إلى أهلي، أخبرتهم بقراري بعدها عدت إلى السفينة.

حزمة أيّام مرت بعدها انطلقنا شرقًا نحو البحر الأسود مرورًا ببحر مرمره صوب مضيق الدردنيل.

صارت تركيا نصفين أسيوية على جانب السفينة الأيمن، أوروبية عند الآخر.

مرورنا بمضيق البسفور أدخلنا البحر الأسود، لأشهر مضت درنا في هذا المحيط الجميل بين تركيا ميناء (أوردو) ورومانيا ميناء (كونستانتا) وأوكرانيا ميناء (أودسا) وبلغاريا.

انتهينا عند ميناء (بوتي) في جورجيا لوقت طويل توقفنا عنده لغرض الصيانة والتصليح السنوي..

مضت الأيّام وتلتها الأشهر، وأنا أتنقّل من ميناء إلى آخر، أعصم نفسي عن كلّ ما تهوى أو تريد، أحبسها في جوٍّ أعتدته بين جدران السفينة، كانت أنفاسي ترزح تحت ضغط رغبات مكبوتة..

انتظرت بتعاطف مشهود مع روحي التي كانت تنعم بهبوب سرور مخفيّ كان يأتيها كلّ ما تحصل على راتبها الشهري حتى صار اليوم الذي لابد فيه من التوقّف عن الترحال، كان العام قد مضت معه بضعة أيّام.

زحمة الأفكار

فكّرت كثيرًا قبل مغادرة السفينة إذ لا عودة..

وشكل ونوع الحياة التي أنا مقبل عليها؟

ما كان من جواب يدور في رأسي إلّا صوت واحد: «عجّل قد حققت مرامك».

لم أكن ذاك الإنسان الذي يشبه نفسه قبل عام، لقد أصبحت أفكّر كثيرًا قبل كلّ قرار أتخذه خصوصًا هذا الذي سيغيّر حياتي في العيش على أرض ليست أرضي بين دماء لا تشابه دمائي.

كلّ ما يحلّ المساء على وجهي لا أستطيع أن أغمض جفنًا ولا يهدأ لي بال.

لا مبرر لي في التأخير، المال وقد جمعته، والموافقة وقد أستلبتها من أهلي ولو كانت بصعوبة لكن بالنهاية تمنّوا لي حياة سعيدة في اختياري شرط زيارتهم كلّما كانت الفرصة مواتية.

في القلب بقية أشواق إلى ذاك الهواء الساخن وشرب اللبن الطازج والتلوث بالوحل والجلوس بالمقاهي والزيارات العائلية والمناكدات بين الأصحاب والكثير من الذكريات

تجرّ بأذناب أثوابي تتمسّك بي تريد مني العدول عن قراري.

يتراءى لي وأنا في زحمة الأفكار العاطفية وجه (ريتا) الباسم المتأكّد من قرار العودة إليها دون أن تشعرني بشيء من الخوف أو القلق.

أيقنت أن قلبي الذي أحيا الفراق دون تحوط لا يقبل حبّ واحدة من اللاتي مررتُ بهنّ، وأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام وإنها تنتظرني هناك تعاني ما عانيته من الإبعاد، تدعو مثل ما أدعو للعيش حتى اللقاء.

لساعات مع الطقس المتقلب لا يمكّنني الضوء الخافت من رؤيتها تمام الرؤيا، تصوّرها عقلي واقفة في كلِّ مساء أمام المرآة تتألّق بزينتها، في ساعة الشدة من جسمي أدعوها بحبيبتي تحت نزوة نادرة وأنا أتفرس جسدها القمحي وهو يتموّج أمامي بثياب مغرية أبتعتها خصيصًا لها ولهذا الغرض..

لم تقاوم صرخات البقاء عندي ضحكات (ريتا)، توارت الملامح، ما يفعله الحبّ صعب نسيانه أو تركه، لم يبقَ على وجه الأرض في عقلي سوى وجه امرأة تنتظرني عند الجهة الأخرى، قد تجهّز الطعام أو تقدّم الطلب أو حتى نائمة، أو على دراجتها تسير، واقفة بين الشجرة والظل...

قرّرت السفر إلى إندونيسيا، (ريتا) مينائي المنشود الذي أنزع فيه جلد التعب المتوالي والسفر المتلاحق، ألبس عندها ثوب الراحة والانسجام في حبّ لم أقرأ عنه حتى في قصص

العشق الشرقية.

الأيّام لا تأتي دومًا على مرام طالبيها..

قدّمت حسب ما يمليه عليّ القانون البحري بطلب إلى القبطان بواسطة رئيس المهندسين في السماح لي بمغادرة السفينة من دون عودة، تفاجأت بردّ يطالبني فيه الربان بالتريث لمدة شهر!

أغلي في انتظار السبب؟

أبلغني صديقي رئيس الضباط أن عليَّ الانتظار، لا بُدّ من وصول البديل الذي سينوبني، أجري معه عملية الاستلام والتسليم بمحضر محرّر رسمي، يحضره في الأقل ثلاثة من البحّارة القدامى.

انتظرت البديل.

طال انتظاري أسبوعًا، أسبوعين، ثلاثة..

في اليوم الثاني والعشرين خرجت من دائرة تحفّظي التي طالما كنت حريصًا على إظهارها بأحسن صورة، وصرت لا أطيق العمل غضوبًا أصيح بهذا وأتشاجر مع ذاك.

طال الحال شهرًا بطوله المرير نسيتُ فيه نفسي.

نبت الشعر في وجهي وكثّ شعر رأسي، أتسخت ملابسي، أحاطت عيني هالة سوداء، هزلت من تحرّك العواطف السريع في داخلي وابتعاد السلام الأخير عني، لامس اليأس قلبي.

السفينة أنهت صيانتها وعليها مغادرة الميناء بعد يومين أو ثلاثة تباشر إبحارها وقد يكون أطول من السابق، في غرفتي وحدي أسمع معزوفة الحزن متكئًا على ضياعي خائفًا من اليأس الذي أحاطني.

طرقٌ على الباب بقوة دفعني بطريقة الخطوة تلو الأخرى أتحرك ببطء حتى فتحته، صديقي رئيس الضباط أمامي مثل الطفل يصيح ملء فمه:

- (فُرجت.. فُرجت).

تهشّم اليأس الجاثم على صدري تهشّم الزجاج حين صحت:

- البديل؟!!

- نعم، هو الآن في المطار، سيصل بعد دقائق بصحبة الوكيل.

ما لبث يكمل جملته حتى اختفى وترك خلفه صدى:

- عليك الاستحمام، رائحتك كريهة.

لم أنتبه لهيأتي إلّا بعد وقوفي أمام المرآة هكذا عاريًا تحت مصبّ الماء الساخن في الحمام.

أزحت شعر لحيتي، تعطرت، بعدها غادرت متوجهًا إلى بَحّار كان يمتهن الحلاقة كهواية، لكنه والحق يقال يجيدها بشكلّ رائع، حلّقت شعري وعدت إلى الحمام، فتحت مصب الماء الساخن أبعد عن جسدي شعر رأسي الذي التصق

بكلّ أجزائه، لكن هذه المرة كنت أغني ناشرًا الصابون على جسمي، في غضون دقائق خرجت متعطّرًا ألبس أجمل ما عندي، في انتظار بديلي كنت متصدر الصبر في صالون البحّارة..

كم أكره الانتظار...

مضت نصف ساعة ولم يصل بعد، أغلي من الداخل أخاف الأحداث المفاجئة، راودتني شكوك من أوهام مجنونة.

تخيّلتُ صديقي يكذب والبَحّارة وضعوا هذا السيناريو للمزاح لا أكثر، أو أن البديل قد تاه، أو حدث له مكروه لا سمح الله، لكن في لحظة غضب حميدة استجمعت بقايا عقلي ورفعت حاكية التليفون، اتصلت ببرج القيادة، كان صوت القبطان الجهور:

- ألو

عرفته بنفسي وسألته:

- أصحيح ما سمعت؟

- ما سمعت؟

- في الطريق بديلي.

ضاحكًا قال:

- نعم، هو الآن عند سُلّم السفينة برفقة الوكيل معه الرواتب الشهرية وفيها مكافأتك التي وَعدكَ بها رئيس المهندسين.

لا أعرف ما حصل لي، احتارت الكلمات في حلقي، تركت القبطان يردّد:

- ألو، ألو...

لذت بصمت لا أستطيع كسر سقوفه، سمعته يقول:

- أفهم ما تشعر به، ألو، ألو، لا عليك ستسافر اليوم، ولو كنا نتمنى بقاءك معنا.

أغلق القبطان الخط، بقيت لا أعرف ما أفعل في يدي الحاكية يخرج منها طنين.

لوقت دخل عليّ صديقي رئيس الضباط معه من يشبه بسمرته سمرتنا وآخر أشقر بعينين زرقاوين، عرفتُ الأول بديلي والآخر جورجي وكيل السفينة.

«انتهت الرحلة التي كانت بصعوبتها وخطورتها وأحداثها المتغيرة المتجددة ألذّ من العسل على قلبي». هكذا فكّرت.

رغم العناء الذي كاد يشق صدري، إلّا أنني اليوم بكامل عافيتي أعود إلى إندونيسيا أحمل أملي الكبير تؤطّره سعادة لا توصف، سأدخل (دوماي) من بابها الكبير، معي نشوة تخطو حرة مجنونة، تنمو في جسدي، ليس على ظهر البحر مثل المرة السابقة. لا، هذه المرة جوًا في طائرة أكثر راحة وأسرع، بيدي جوالي الذي كان بريد التواصل على طول مسافات إبحاري البعيد عن (ريتا) التي هي الآن تنتظر وصولي في المطار عند صالة الانتظار مع ابنها وأُمها العجوز بظهرها المنحني، معهم (أنطونيو) وزوجته طبعًا.

قادِم الأيام

لا أعرف بالضبط لِمن في قادم الأيّام سأشير؟
أَلعينيَّ اللتين ستحومان حول بطن ريتا في حملها؟
أَمْ لقلبي الذي سيمدّ يديه شوقًا إلى أهلي؟
لا يهمّ، لا يهمّ، سأترك هذا إلى قادم الأيّام؛ فالطائرة هبطتْ وخطّتْ عجلاتها أرض (دوماي)...

المؤلف في سطور

- حسن البحّار
- قاص وروائي عراقي
- المهنة: بحّار
- خريج أكاديمية الخليج العربي للدراسات البحرية
- عضو اتحاد أدباء وكُتّاب العراق
- عضو المجلس المركزي في اتحاد أُدباء وكُتّاب العراق
- مؤسس ومشرف عام مجلة مرسى أدب
- رئيس مجموعة «الثقافة هي الحل»
- عضو البيت الثقافي العراقي التونسي
- عضو رابطة بغداد الثقافية
- عمل رئيسًا لنادي السرد في اتحاد الأدباء
- عمِل محررًا في العديد من الصحف والمجلات منها: مجلة الأديب العراقي – مجلة الآداب والفنون – صحيفة أوتار
- نشرت له الصحف والمجلات العديد من القصص والقصائد
- شارك في الكثير من المؤتمرات والمهرجانات والفعاليات الأدبية
- نال العديد من شهادات التقدير ودروع الإبداع والتميز.
- كُتب عن نتاجاته الكثير من الدراسات النقدية.

• صدر عنه الكتاب النقدي (من فضاء البحر إلى شجون الكتابة: قراءات نقدية في رواية حسن البحار «بحر أزرق.. قمر أبيض») شارك فيه نُقَّاد عرب وعراقيين، حرَّره د. فاضل التميمي

• صدر عن روايته «النوتي» الكتاب النقدي (الذات في رواية النوتي) للناقدة د. عبير خالد يحيى

• صدر عنه الكتاب النقدي (البحر وأدب الرحلات عند حسن البحار) للناقدة د. عبير خالد يحيى

• حاز على جائزة أدب الرحلات في مسابقة المرحوم (ناجي جواد الساعاتي). عن رحلته «بحر أزرق.. قمر أبيض»

• نال وسام الإبداع لعام ٢٠١٦ من الرابطة الثقافية في تونس

• فازت قصته (رجل قال لا) في كتاب عربي لكتاب قصصي تحت عنوان «حلم الوصول».

• المؤلفات:

– الدردبيس : مجموعة قصصية. دار تموز النشر، دمشق، ٢٠١١

– مرام : رواية. مطبعة الخيال، بغداد، ٢٠١٢

– بحر أزرق.. قمر أبيض: رواية. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٤

طبعة ثانية: الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد

طبعة ثالثة: دار أحمد المالكي، بغداد

طبعة رابعة: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٣

- النوتي : رواية. دار الرافدين، بيروت، ٢٠١٧
- الريح تُترك فوق الطاولة: مجموعة قصصية. دار الجواهري للنشر والتوزيع - بغداد، ودار العودة - بيروت، ٢٠١٧

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net